مقالات عن

التبو

بيئتهم، تاريخهم، ثقافتهم

ترجمة وإعداد:

عثمان المثلوثي

مراجعة:

عبدالله لبن



مركز الدراسات التباوية



مقالات عن التبو

بيئتهم، تاريخهم، ثقافتهم

إعداد وترجمة:

عثمان المثلوثي

مراجعة:

عبدالله لبن



مركز الدراسات التباوية

مقدّمة



وصلّى الله على خاتم الأنبياء سيّدنا محمّد الصادق الأمين وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين.

أمّا بعد

فهذا الكتاب، قارئي العزيز، هو مجموعة من المقالات المترجمة بتصرّف عن بعض الكتب والتقارير التي كُتبت في التبو وجغرافيتهم وثقافتهم وعاداتهم وتنظيمهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كمكوّن ثقافي يشكّل فسيفساء الجنوب الليبي والصحراء الكبرى.

والغرض من هذا الكتاب هو التعريف بالتبو وثقافتهم وكافة جوانب حياتهم التي ظلّت مطموسة عن قصد أحيانا وعن غير قصد أحيانا أخرى، ولكن أيضا للأجابة عن جملة من الإرهاصات التي تتخذ شكل أسئلة أعتقد أنّ مُعظم الكتّاب والباحثين والقرّاء يُشاطرونها، وهي التالية:

- لماذا يهتمّ الباحثون الأجانب بدراسة التبو وغيرهم من الأقليات العرقية وثقافاتهم؟

- أليس أولى بنا نحن، الكتاب والباحثون العرب والليبيين على الأخص، أن نبحث في فسيفساء مجتمعاتنا لكي نُدرك أهميّة موروثنا الثقافي ومكانته في ثقافتنا الوطنية، مثلا؟

- لماذ تبقى أعمال كثيرة كتبها عدد من الرحالة والمستكشفين الذي جابوا المنطقة منذ قرون طيّ الكتمان على رفوف مخازننا أو في مكتبات الدول الغربية دون أن ننظر فيها، أو نترجم ما جاء فيها؟

- لماذا نرى مثل تلك الأعمال تُترجم بين اللغات الأجنبية ونُهملها نحن وكأنّها غير موجودة؟ أهي مسألة إمكانيات؟ أم قُدرات وخبرات؟ أم سياسات مقصودة لطمس التاريخ؟

- كيف نفسّر غياب البرامج والمنح والإستراتيجيات الرامية لإعادة تثمين ذلك التراث تمجيصا وترجمة؟ من يتحمّل المسؤولية التاريخية لإغفال أو طمس موروثنا الثقافي؟

- متى سيتمّ جرد الكتب والأبحاث والدراسات التي تناولت التبو مثلا بغرض حفظها وحمايتها وتشجيع الباحثين والمترجمين على استنطاقها لكي نفهم كيف نثمّن موروثنا الثقافي وتنوّعه ونقدّر قيمته وثرائه.

هذا الكتاب هو محاولة للأجابة على هذه الأسئلة وغيرها، وهو في الحقيقة مبادرة مشتركة بين المترجم ومركز الدراسات التبوية لفتح نافذة على الأعمال التي تناولت التبو وخلق نواة لمكتبة تبوية نحن في أمسّ الحاجة نحن في أمسّ الحاجة إليها وتطمح لأن تكون رائدة في مجال الدراسات التبوية في ليبيا والمنطقة، ولتكون منارة توجّه شعب التبو وتعرّف بجغرافيته وثقافته وجوانب مختلفة من حياته. وهي مقاربة لترسيخ

التعدديّة الثقافية التي باتت تُعدّ مكسبا هامّا للثقافة الوطنية الليبية. وهذه المبادرة هي تجسيد لفكرة أنّ المعرفة وسيلة للتمكين، والتمكين طريق للفعل والتغيير، من أجل غد أفضل وأكثر إشراقا.

لذلك، جاء هذا الكتاب في شكل مجموعة من المقالات المترجمة والمقتبسة بتصرّف عن بعض الدراسات والكتب الأجنبية التي تناولت جوانب من تاريخ التبو والتي حاولنا تبويبها رغم ما بينها من تداخل وترابط من حيث تغطيتها للجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. كما ارتأينا تقسيم هذا الكتاب إلى أربعة أبواب هي: جغرافيا التبو وبيئتهم- الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية -مظاهر من ثقافة تبو الصحراء وتاريخهم - شخصيات تاريخية.

ولا ننسى الظرف الاستثنائي الذي جاء فيه الكتاب خاصّة وأنّ ليبيا ما تزال تنوء تحت عبء الثورة وإرهاصاتها ولم تتخطّ المرحلة الانتقالية بعدُ، وهو ما جعل النفاذ إلى المعلومة أو الكتب الأجنبية والمخطوطات مسألة في غاية الصعوبة، علاوة على شح موارد التمويل. ولولا تشجيع المهتمّين بثقافة التبو وعلى رأسهم إدارة مركز الدراسات التبوية لما كان بالإمكان إكمال هذه العمل. وما توفيقنا إلاّ بالله.

عثمان المثلوثي

ديسمبر 2015



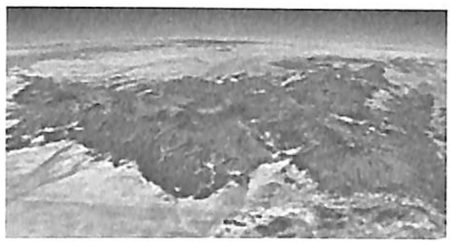
الباب الأوّل

جغرافية التبو وبيئتهم

جبال تيبستي: مناطق التبو

مقدّمة عامة:

جبال تيبستي هي سلسلة جبال صخرية في وسط الصحراء الكبرى، تمتدّ من جنوب ليبيا إلى داخل الجهة الشمالية من تشاد حيث يقع الجزء الرئيسي من سلسلة الجبال هذه. ويشكل جبل إيمي كوسي أعلى نقطة في هذه الجبال ويقع في جنوب السلسلة بارتفاع يبلغ نحو 3415 مترا وبذلك فهو أعلى نقطة في دولة تشاد وفي الصحراء كلّها. أمّا جبل بيكو بيتّي فهو أعلى قمّة في ليبيا. ويتكوّن الثلث الأوسط من هذه السلسلة من مجموعة بركانية خامدة، تتكوّن أصلا من خمسة براكين درعية رئيسية توجد في أعلاها مراجل ضخمة (تصدعات دائرية كبيرة) هي: إيمي كوسي، تارسو تون، تارسو فون، تارسو ييغا، وتارسو توسيديه. وقد شكّلت تدفقات الحمم البركانية الكبرى هضابا شاسعة تعلو حجارة رملية تعود إلى عصور الحياة القديمة.



صورة لسلسلة جبال تيبستي

منظر من الجهة الجنوبية وتظهر قمّة إيمي كوسي في الزاوية اليمنى أسفل الصورة.

حدث هذا النشاط البركاني عند تكوّن نقطة ساخنة (أي ذات نشاط بركاني) أثناء العصر الجيولوجي الأوليغوسيني[1]، واستمر حسب المناطق حتى العصر الجيولوجي الهولوسيني[2] ولا زال يتمظهر حتى الآن في شكل فومارول[3] (حُفر بركانية تتصاعد منها الأبخرة)، والينابيع الساخنة وحمامات الطين أو أيضا خزانات الصودا والكبريت. كما شكّلت ظاهرة التآكل إبراً بركانية وأودية عميقة تجري في أعماقها جداول مياه بتدفق غير منتظم وسرعان ما تضيع في رمال الصحراء.

تيبستي، ويعني "المكان الذي يعيش فيه سكّان الجبال" هو فضاء التبو ومجالهم الحيوي. فهم يعيشون أساسا على طول الأودية، في عدد من الواحات النادرة حيث تنمو أشجار النخيل وبعض الحبوب، وهم يقومون باستغلال مياه البرك "القِلات"[4] المتراكمة في المنخفضات الطبيعية خلال العواصف الرعدية التي تختلف اختلافا كبيرا من سنة إلى أخرى ومن عقد إلى آخر.

تُستخدم الهضاب للرعي في فصل الشتاء ولزراعة البذور وحصادها في الصيف. كما أنّ درجات الحرارة مرتفعة، حتى وإن كان الارتفاع يجعل من سلسلة الجبال أقل تصحّرا من الصحراء ذاتها. والتبو، الذين ظهروا في جبال تيبستي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد.[5] تكيفوا مع هذه الظروف، وجعلوا من جبال تيبستي قلعة طبيعية هائلة استوطنوها على موجات كبيرة متعاقبة ولجئوا إليها في أوقات النزاعات والحروب وانتشروا حولها ن في أوقات السلم والرخاء، دون أن يخلو ذلك من الصراعات الداخلية المكثفة في بعض الأحيان.

وكان للتبو سكان تيبستي على وجه الخصوص علاقات مع القرطاجيين،

والبربر، والطوارق، والعثمانيين، والعرب والمستعمر الفرنسي الذي دخل المنطقة عنوة لأوّل مرّة في عام 1914، وأخيرا في عام 1929.

وقد حال موقف التبو الدفاعي عن منطقتهم والوضع الجيو-سياسي الإقليمي عموما دون القيام بعمليّة استكشاف وافية لسلسلة الجبال هذه والصعود إلى قممها، وإن كان الرحالة الألماني غوستاف ناختيغال يبقى منذ 1869 ولا يزال شخصية رئيسية في هذا المجال. كما تجدر الإشارة إلى أنّ التوترات استمرّت حتى بعد استقلال تشاد وليبيا وصلت حدّ احتجاز الرهائن والصراعات المسلحة، بسبب خلافات حول تقاسم الموارد الطبيعية للمنطقة. ولا شكّ في أنّ هذا الوضع وعدم وجود بنية تحتية مناسبة قد زاد من تعقيد الوضع خاصة أمام السياحة وتحويل المنطقة إلى وجهة سياحية.

وعلى الرغم من أنّ النباتات والحيوانات الصحراوية-الجبلية والتي تشمل الغزال النحيل القرون والضأن البربري، قد تكيفت مع طبيعة وتضاريس سلسلة الجبال هذه، فإنّ المناخ لم يكن دائما قاسيا بهذا الشكل، وبالتالي فإنّ تنوّعا حيويّا أكبر كان موجودا كما ثبت من الصخور الصخرية والجدارية العديدة التي تعود إلى آلاف السنين ربّما تعود إلى حقب تسبق ظهور التبو. وهكذا فإنّ عزلة تيبستي طبعت الخيال الثقافي في الفن والأدب.

تضاريس المنطقة

يبلغ ارتفاع أعلى قمة في سلسلة جبال تيبستي (وفي الصحراء) 3415 مترا، وتسمّى هذه القمّة إيمي كوسي وتقع في الطرف الجنوبي من السلسلة. ومن بين القمم الأخرى نذكر قمّة توسيديه (3296 مترا)، وتيمي (3012 مترا)

وتقع في القسم الغربي، ثمّ تارسو ييغا (2972 مترا)، وتارسو تيروكو (2845 مترا)، وإيهي موسغو (2849 متر)، وتارسو فون (2845 مترا)، وإيهي سُنّي (2820 مترا) وإيهي يابيه (2774 مترا) في الجزء الأوسط من السلسلة. ويمثل كلّ من جبل موسكوربي (2978 مترا) وجبل كيغير تيربي (2812 مترا) أيضا قمّتين مهمّتين من حيث الارتفاع وتقعان في الجزء الشمالي الشرقي من سلسلة جبال تيبستي. ويمثل جبل بيككو بيتّي (2267 مترا) أعلى نقطة في ليبيا، ويقع على مقربة من القمم الأخيرة ولكن على الجانب الآخر من الحدود (بين تشاد وليبيا). أمّا متوسط ارتفاع جبال تيبستي فهو حوالي 2000 متر وتتجاوز نحو ستّين بالمائة من مساحته تتجاوز ارتفاع 1500 مترا.



صورة بالأقمار الصناعية لسلسة جبال تيبستي

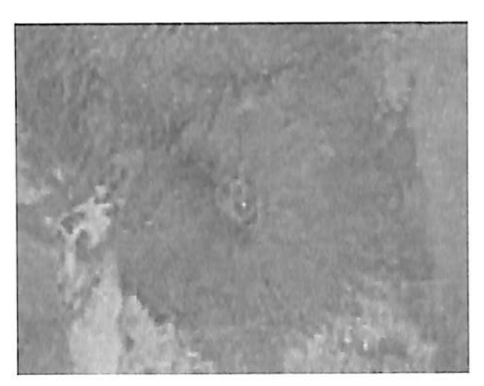


صورة بالكمبيوتر لجبل إيمي كوسي من الجهة الجنوبية

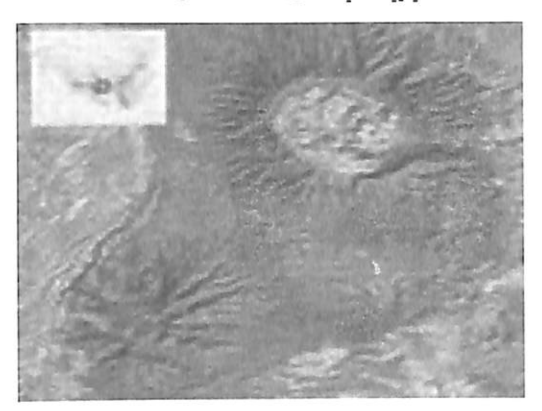
ويركز المنظر على شكله كبركان درعي يعلوه مرجل كبير، ويمتد شمالا بجبل تارسو اهون.

تتكوّن سلسلة جبال تيبستي من خمسة براكين درعية يصل قطرها إلى نحو ثمانين كيلومترا مع وجود قاعدة واسعة ولكن بها قمم أشدّ ميولا تعلوها مراجل كبيرة: وهي إيمي كوسي و تارسو تون والذي يرتفع إلى 2575 مترا فوق مستوى سطح البحر، وتارسو فون وتارسو ييغا، وتارسو توسيديه والذي يرفع إلى أعلى نقطة وتحمل نفس الاسم. ويتمتّع تارسو ييغا بأكبر مرجل يبلغ قطره عشرين كيلو مترا وعمق يبلغ حوالي 300 مترا. ومرجل تارسو فون وهو أعمق وبلغ حوالي ألف متر وبقطر يبلغ بين 12 و13 كيلومترا. ويكتمل المشهد بأربع قباب العظمى من الحمم المركّبة، التي ترتفع إلى نحو 1300 و2000 مترا ويبلغ حجمها بين عدّة كيلومترات إلى عشرات الكيلومترات وتقع كلها في الجزء الأوسط من السلسلة الجبلية: أمّا تارسو تيريكو وإيهي ييه، وإيهي موسغو، وتارسو أيبكي والذي يبلغ ارتفاع ذروته 2691 مترا. وبشكل عام فإنّ هذه الصروح البركانية خامدة، ولكنّ أربعة منها تُعتبر نشطة أو ربّما كانت كذلك خلال العصر الجيولوجي الهولوسيني على الأقل من قبل مؤسسة سميثسونيان.[6] وهكذا، فإنّ تارسو توسيديه هو بركان نشط تدفقت منه حمم بركانية على مدى الألفي سنة الماضية وما زالت تخرج من منافذه البركانية أبخرة مرئية بالعين المجرّدة عندما يكون التبخّر ضعيفا. وهو يُشرف من ارتفاع يزيد عن 1000 متر فوق سطح البحر على مرجل بقطر ثمانية كيلومترات وحفرة ناطرون بعمق 768 مترا. وعلى الجانب الشمالي-الغربي من تارسو فون يوجد حقل سوبوروم للطاقة الحرارية الأرضية، حيث توجد حمّامات الطين ومنافذ بركانية للحمض الكبريتي. وقد لوّن الكبريت والحديد التربة بألوان حيّة وزاهية. كما أنّ هنالك منافذ بركانية تخرج منها أبخرة من عين يي ييرّا في جبل إيمي كوسي. وأخيرا، يشار إلى أنّ تارسو توه يعود إلى العصر الجيولوجي الهلوسيني. هذا

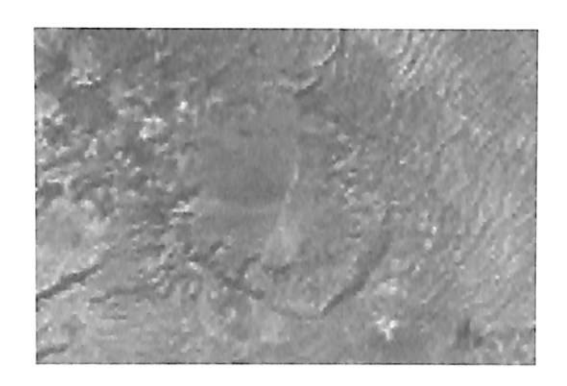
ويتركّز النشاط البركاني في ذلك الجزء من السلسلة الجبلية الموجود في تراب تشاد، وعلى ما يقرب من ثلث المساحة الإجمالية لسلسة جبال تيبستي. وهو المسؤول عن كمية إجمالية من الصخور تغطي بين 5000 و6000 كيلومترا مربّعا.



منظر للبراكين الدرعية الخمسة في سلسلة جبال تيبستي: قمّة إيمي كوسي مع لون خافت للنبع الحار في بي ييرّا في الجنوب (أسفل الصورة).



صورة لبركان تارسو تون (في الأعلى على اليمين) وإيهي ييه (في الأسفل على اليسار)



صورة لبركان تارسو فون



صورة بألوان كاذبة لبركان تارسو ييغا (أعلاه).



صورة لبركان تارسو توسيديه وذروة توسيديه في الوسط تظهر كلطخة داكنة وحفرة النطرون في الأعلى على اليسار.

أمّا ما تبقى من السلسلة الجبليّة فيتكون من الهضاب البركانية المسطحة، والمعروفة باسم "تارسو" في لغة التدا، وتتراوح ارتفاعاتها بين 1200 و 2800 متر، إضافة حقول حمم بركانية والتراكم الطبيعي للمقذوفات والصُّهارة. وتقع الأكثر عددا والأكبر من حيث الرقعة في الناحية الشرقية: تارسو إيمي تشي على مساحة 7700 كيلومتر مربع، وتارسو أووتزي بمساحة تقدّر بنحو 6500 كيلومتر مربّع وتارسو اهون بحوالي 3000 كيلومتر مربّع في شمال بركان إيمي كوسي، وتارسو موهي بمساحة 1200 ميلومتر مربّع. في الوسط يوجد تارسو أوراري بمساحة تقدّر بحوالي 700 كيلومتر مربّع. وفي محيط تارسو توسيديه، في الجهة الغربية، توجد مجموعة تارسوات (هضاب بركانية) وتحمل اسم تارسو توه وتارسو مامرتيو بمساحات تقدّر بحوالي 490 و 98 كيلومتر مربّع لكلّ منها على التوالي. وتنتصب في أعلى هذه الهضاب البركانية المسطحة إبر بركانيّة ومفصولة بأخاديد تشكّلت بفعل الشعبان (الأودية) ذات التدفّق غير المنتظم بشكل

كبير. وتتخلّل السلسلة الجبلية في الجزء الأوسط منها شبكة من الوديان الجافة التي ترسّبت على منحدراتها الشمالية الرمال بسبب الرياح السائدة. وبعد نزول المطر، تمتلئ دوما بتيارات جارفة وسريعة تجرف كلّ ما يقف في طريقها.أمّا المنحدرات الجنوب-غربية من السلسلة الجبلية فهي عبارة عن منحدرات عادية بينما المنحدر الشمالي فهو عبارة عن جُرف عال يطلّ على العرق الكبير في الجنوب الليبي أو ما يسمّى بسرير تيبستي.

هوامش:

(1) العصر الأوليغوسيني (Oligocene) الفترة الضُحَوِيّة أو الضُحَويّ: هي فترة جيولوجية امتدت بين 34 مليون سنة و23 مليون سنة. قبل الحاضر.عثر على أحفورات من هذا العصر بصفة خاصة في حفرة ميسيل بوسط ألمانيا.

(2) الهولوسين باللاتينية (Holocene) : وهي ثاني وآخر حقبة من العصر الرباعي، حيث تمتد من (11,700 سنة) إلى يومنا هذا. يمثّل الهولوسين الفترة الأخيرة من الزمن الجيولوجي. من المحتمل أنّنا نعيش اليوم في فترة دفء بين فترات جليدية باردة. ومن المتوقع أن الجليد سيعود بعد عدة آلاف من السنين ليغطي مرة أخرى المناطق التي كانت تغطيها الطبقات الجليدية أثناء عصر البليستوسين. وعلى هذا الأساس يعدّ الهولوسين أو "العصر الحديث" استمراراً لعصر البليستوسين من حيث توزع القارات والمحيطات والكائنات الحية. غير أنّ تراجع الجليديات إلى مواقعها الحالية خلّف الكثير من البحيرات الكبيرة في المناطق التي كانت تغطيها.

استمر في الهولوسين تصدّع بعض الطبقات في مناطق الجبال الحديثة التكوّن نتيجة لحصول زلازل مهمة، كما حصلت اندفاعات بركانية بجوار هذه السلاسل الجبلية انبثقت من شقوق أرضية أو من براكين لا يزال بعضها في أوج نشاطه في العصر الحالي. كما تعرضت القشرة الأرضية في المناطق التي هبطت بتأثير ثقل الجليديات في البليستوسين إلى حركات توازنية isostasy، إذ بدأت بالنهوض بعد أن زال حملها من الجليديات وبالعودة إلى مواقعها الأصلية. ويتجلّى هذا النهوض في مناطق حول بحر البلطيق والقطب الشمالي وحول البحيرات الكبرى في أمريكا الشمالية، إذ ترتفع هذه المناطق بمعدّل 13 متراً كل ألف سنة.

(3) فومارول Fumarole وهو دخان يخرج من فوق القشرة الأرضية وعادةً ما يخرج قرب البراكين، مصاحباً لبخار الماء و الغازات و ثنائي أكسيد الكربون و ثنائي أكسيد الكبريت و كلوريد الهيدروجين وكبريتيد الهيدروجين وعادة ما يخرج من الينابيع في المناطق الباردة مثل ألاسكا و غرينلاند و أيسلندة.

(4) القلتة (جمع:قِلاتٌ): هي النُّقرة في أَرض أَو بدنٍ وهي حُفْرَة في صَخر يستنقِع فيها ماؤه. ويستعمل هذا المصطلح للدلالة على تجمع الماء أو الواحات في وديان المغرب العربي والصحراء الكبرى. مقاس القلتة ومدة بقاء الماء فيها يرتبطان بالمكان والظروف. وقد تستمر على مدار السنة حتى خلال موسم الجفاف إذا غذّاها مصدر مثل الينابيع. عندما تجف السيول (الأنهار) الموسمية قد تبقى هناك جيوب من المياه على طول مساره (راجع بحيرة أوكس بو)

(5) هذا التاريخ قابل لإعادة التثبت وهو من المسائل التي يتناولها المركز بالبحث.

(6) مؤسسة سميثسونيان أو معهد السمثصوني (Smithsonian Institution) مؤسسة تعليمية وبحثية مع مجموعة متاحف تموّلها وتديرها حكومة الولايات المتحدة بالإضافة إلى دخل من الهبات والتبرعات وأرباح متاجرها ومجلتها. تأسست في 10 أغسطس 1846 عبر قانون أصدره آنذاك الكونغرس الأمريكي، تقع معظم مرافقها في واشنطن العاصمة باستثناء 19 متحفا وحديقة حيوان وثمانية مراكز بحثية تتوزع بين فرجينيا وبنما ومدينة نيويورك وأماكن أخرى. وللمؤسسة أكثر من 142سنة.

***

تيبستي: أهم مناطق التبو

يُعدّ تيبستي هو واحد من أربعة أقاليم تكوّن منطقة بوركو، إندي-تيبستي وعاصمته هي برداي. وتيبستي هو عبارة عن سلسلة جبليّة انتصبت في قلب الصحراء الشرقيّة وتغطّي مساحة تقدّر بنحو مائتين وخمسة وسبعين ألف كيلومتر مربع.

التاريخ الطبيعي للمنطقة

يُمكن قراءة تاريخ القشرة الأرضية في كلّ صخرة في تيبستي. فقد شهدت سلسلة جبال تيبستي فترتين بركانيتين كبيرتين، واحدة في العصر الجيولوجي الثالث ويرقى إلى حوالي سبعين مليون سنة، والثانية في العصر الجيولوجي الرابع أي منذ ظهور أوّل البشر. وقد نشأت براكين من الطبقة السفليّة البلورية القديمة. ومنذ ذلك التاريخ ما فتئت الرياح القوية تشكّل منظر هذه السلسلة الجبلية. وعندما تهبّ عاصفة رملية فإنّ القمم التي يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثة آلاف متر تُصبح غير مرئية حتى من مكان قريب. والرياح التجارية (أو القبلي) التي تهبّ دائما من الشرق لا تحمل أبدا سوى الرمال والغبار. والأمطار الشحيحة (بمتوسّط خمسة وعشرين ميليمترا سنويا) تتساقط أساسا على القمم الجبليّة فقط. وتشكّل قمّة بركان (إيمي كوسي) أعلى نقطة في الصحراء بارتفاع يبلغ 3415 مترا. كما جُرفت جنبات قمّة البركان المخروطية منذ عشرات الملايين من السنين خلال انفجار ضخم.

وبقيت آثار تلك الكارثة في شكل فوّهة عميقة وواسعة بعُمق 900 متر وقطر يبلغ حوالي 12 كيلومترا حيث ظهرت مداخن بركانيّة جديدة. إنّها قمّة (تارسو) الشهيرة بلغة تدا أو حفرة النطرون. وتعود تسميتها إلى قشور كربونات الصوديوم (Na2CO3) التي تظهر هناك في شكل ترسّبات عقب العواصف المطيرة، إذ تُغسل الصخور البركانية من أملاحها ويتبخّر الماء مباشرة في هذا المرجل الطبيعي الضخم. وتقدّر علماء المناخ بأنّ مياها تقدّر بارتفاع ستّة أمتار تضيع سنويا من مساحة ألف هكتار من بحيرة (أونيانغا الكبيرة) والتي تقع على ارتفاع أربع مائة مترا. ولكن مستواها يظلّ ثابتا بسبب "المياه الأحفورية" التي تغذّيها بانتظام. ومع ذلك، فإن التبخر يتسبّب في تركيز الأملاح بشكل يجعل المياه غير صالحة للشرب. وهكذا فإنّ لا نجد فيها أي شكل من أشكال الحياة المتطورة تقريبا. ففي الحصى البركانية تنمو نباتات بريّة بشكل نادر وتجمعها نساء التبو خلال أشهر القحط، حيث تعيش الأسر أساسا على الحليب والتمر والحبوب (أي اثني عشرة و عشرين كيلوغراما سنويا على التوالي للفرد الواحد). أمّا اللحوم فتقتصر على المناسبات الكبيرة. والعدد القليل من الماعز والحمير التي قد تتواجد في القرى تتغذى على النفايات النباتية. أمّا الجمال، فهي تترحّل في البادية بحسب مواسم الأمطار. وتُبنى البيوت المقبّبة بالقصب والنخيل المسند على الجدران الحجرية المنخفضة. وفي الخريف، يلتحق الرجال بواحات النخيل لجمع محصول التمور، بعد أن يضعوا قطعانهم في عُهدة بعض الرعاة. ويبدو أن النسوة يرتدين الحجاب أكثر فأكثر للوقاية من الغبار وليس فقط امتثالا للتعاليم الإسلامية. وتشهد الرسومات والنقوش الصخرية المتناثرة في سفوح ووديان ومغاور تيبستي على حضارة موغلة في القدم تعود إلى نحو خمسة وعشرين ألف سنة قبل الميلاد (ورغم ذلك فإنّه ما من موقع من

مواقع تيبستي حظي بتصنيف من قبل اليونسكو كموقع تراث عالمي). وهناك نقوش صخرية في المنطقة المحيطة بمنطقة (زووار) تُظهر إلى جانب العديد من المناظر رسوما للأبقار التي تعشق العشب الطري، وهي تقف شاهدا على الجو الرطب الذي كانت تتمتّع به الصحراء في الماضي.

ديموغرافية المنطقة

تقدّر أعداد التبو في ما بين مائتي ألف وخمسمائة ألف نسمة، ونجدهم موزعين بين شمال-شرق النيجر، وشمال تشاد، وجنوب ليبيا، وشمال-غرب السودان وجنوب-غرب مصر حيث يعيشون أنماط حياة بدوية. يمارس سكان تيبستي تربية الماعز والإبل والبستنة، وأيضا يغرسون أشجار النخيل، وتبلغ أعداد سيقان النخيل في تيبستي أكثر من خمسين ألف نخلة. وقد انخفض الغطاء النباتي في السنوات الأخيرة سواء في الصحراء أو في الساحل. وعلى مقربة من الأودية الموسميّة (الإينيري) لا يُمكن للتبو سوى بناءأكواخ من جذوع الأشجار الميتة. ثم سرعان ما يطاردهم الجفاف. وفي أماكن أخرى، يشيّدون بيوتا في شكل هياكل القوارب، ويغطونها بالحُصر. وعندما يغادرون منتجعاتهم إلى مراعي جديدة، فإنّهم لا يحملون معهم سوى الأغطية التي يضعونها على الهياكل الموجودة من قبل في المكان. وهكذا دواليك. وقد صمّمت هذه المنازل بذكاء بشكل يجعلها عازلة للرمل فلا تدع ولو حبّة واحدة تدخل حتى في ظل العواصف الرملية. أمّا أثاثهم فهو بدائي: سرير مصنوع من فروع الأشجار وحصير، ومقعد صغير وخزانة.

ونجد لدى التبو في تيبستي ثلاث أنواع من المساكن:

- مساكن شبه الرحّل، وهي عبارة عن خيام.

- المساكن القارّة التقليدية بالقرى. بيوت تقليدية مشيّدة من الحجارة.

- المساكن القارة المتفرّقة. ويتم تحديد حرم البيوت بالزريبة، أو الأسيجة المصنوعة من بقايا النباتات وفي العادة من سعف النخيل لحماية البيوت من زحف الرمال. أمّا البيوت فيتم بناؤها بالطوب وهو عبارة عن مزيج من التراب والعشب الجاف المخلوط بالماء والمشكل في قوالب.

الباب الثاني

الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية



أهمّ المحطّات في التاريخ السياسي لتيبستي(*)

- حوالي العام 1230 قبل الميلاد، أسّس (طهارقا Taharke) إمبراطورية التِّدا، التي تفرّعت إلى ستّ وثلاثين عشيرة. وكانت (تازربو) عاصمة لتلك الإمبراطورية. وبعد الهزيمة ضدّ الرومان (إردي مادو بلغة التدا) قام شعب التدا بتغيير عاصمتهم التي أصبحت (زووار) إلى يومنا هذا. وفي 1230 قبل الميلاد، كان التبو، وهم بدو رحّل، ومحاربون شجعان غامضون، يمارسون العبادات القديمة مثل سكان الصحراء، ثمّ أصبحوا يدينون بالإسلام. والتبو يطبقون القانون العرفي المستمدّ من الشريعة الإسلامية.

- حوالي عام 820، أسّس (ماي) تيبستي (وهو الشقيق الأصغر لدردي مولفاتور Derdé Molitafor) مملكة كانم.

- في الفترة 1085-1097، سيطر دردي أومي Oumé على منطقة فزّان وتيبستي وكانم ووصل حتى وسط النيجر.

- في الفترة 1097-1150، اعتنق دردي دوناما Dounama (ويعني القوي بلغة التدا) الديانة الإسلامية.

- في عام 1100: تمّ بناء مسجد في (تارسو موسو).

- في الفترة 1194-1221، ضعُفت المملكة في ظل حكم دردي ماي

---

* بتصرّف عن شبكة المعلومات الدولية www.comoria.com .

دونامي، وفقد إقليمي كانم وفزان، ولكن ظلّ يسيطر على تيبستي وحتى الصحراء الليبية.

- في الفترة 1221- 1259، اعتلى دردي كودوفوري Kodofouri (حفيد دونامـا) العرش وغيّر من السياسة وطبّق القانون العرفي وأنشأ التجمّع التقليدي، حيث لم يكن يوجد من قبل سوى مجلس النبلاء.

- في الفترة 1259- 1270، توفّي دردي موتي Motti في معركة ضدّ سلالة الشريف في مُرزق.

- في الفترة 1270- 1300، وقّع دردي دارسالاّ Darsallah معاهدة السلام والتجارة مع قبيلة الشرفاء.

- في الفترة 1550- 1590، وبعد وفاة دردي مولّي Moli، تم تقسيم المملكة بين أبناءه الثلاثة: أرامي، إردي و لاي.

- في عام 1560: تمّ أوّل تواصل بين التبو والإمبراطورية العثمانية.

- في الفترة 1590- 1670: وفي عام 1650، وقّع دردي أرامي وملك الطوارق معاهدة السلام واعتراف بالأقاليم.

- في عام 1805: فشل الحملة العسكرية التي قام بها باشا طرابلس ضد تيبستي.

- في عام 1820، تم التوقيع على معاهدة سلام ثانية بين الدردي والطوارق. وتنقسم منطقة تيبستي إلى قسمين، الجزء الشمالي-الشرقي ويخضع لسيطرة دردي شهاي Chahï والجزء الجنوبي-الغربي ويسيطر عليه (غيتي ماينا Maïna Getty).

- في عام 1885، أنشأ غيتي الأوّل (1839-1929) اتحاد التبو من خلال التجمّع التقليدي الذي يتكون من 36 من زعماء العشائر التقليديين.

- في عام 1890، وقع غيتي الأوّل معاهدة مع الدولة العثمانية.

- في عام 1895، ألغى غيتي الأوّل الرق وحظر الغزوات.

- في عام 1900، تمّ إبرام اتفاق بين غيتي الأوّل والسنوسيون (ليبيا) أو الأخوية السنونسية.

- في 10 ديسمبر 1913، تمّ احتلال تيبستي من قبل القوات الفرنسية. وقبل وصول القوات الفرنسية كانت تيبستي تنقسم إلى قسمين، الجزء الشمال-الشرقي ويخضع لحكم دردي شهاي، والجزء الجنوبي-الغربي ويحكمه دردي غيتي.

- في 15 فبراير 1914، وبعد وفاة الرقيب (غويالاند Gouailland) وخمسة من الرماة، تخلت فرنسا عن تيبستي.

- في 1929، توفّي غيتي.

- في عام 1930، أعادت فرنسا إحتلال تيبستي، ولم تتمكّن فرنسا من السيطرة على كامل تيبستي، واستمرّت الثورة وقتل كلّ القناصة حتى عام 1950.

- في عام 1964 وبعد استقلال تشاد في عام 1960، أصبحت تيبستي إقليما تشاديا ينعم بالحكم الذاتي، وكانت هناك عدة ثورات من قبل التبو من أجل استقلال تيبستي.

- في 1 مارس 1964، تمّ احتلال تيبستي من طرف القوات التشادية.

- في 6 أكتوبر 1964، أسفرت ثورة التبو عن إحدى عشر قتيلا وبعض الجرحى.

- في عام 1968، وقع تدخل عسكري فرنسي بناء على طلب من الرئيس التشادي لمواجهة التمرّد في تيبستي، وأسفر التدخّل لقمع التمرّد عن سقوط ستيّن قتيلا في صفوف المتمردين وذبح مائتين وخمسين مدنياً من التبو.

- في عام 1973، قامت ليبيا بضمّ شريط أوزو.

- في عام 1975، تمّ احتلال تيبستي من قبل متمردي جبهة التحرير الوطني التشادي (Frolinat).

- في 1987 نشبت الحرب على شريط أوزو بين الليبيين والتشاديين، وأسفرت الحرب عن مقتل أكثر من عشرة آلاف من العسكريين من الطرفين ونحو ثلاث مائة من الضحايا في صفوف المدنيين التبو.

- في 1 ديسمبر 1990، عمّ السلام جميع ربوع تيبستي.

- في عام 1994 صدر قرار محكمة العدل الدولية بتاريخ 3 فبراير 1994 والذي أصبح شريط أوزو بموجبه إقليما تشاديا.

- في 10 أكتوبر 1998، اندلعت حرب بين الحكومة التشادية والحركة من أجل الديمقراطية والعدالة في تشاد (MDJT)، وبين 10 أكتوبر 1998 و1999، قُتل نحو مائة وواحد من التبو المدنيين بسبب الألغام التي زرعتها الحركة والحكومة التشادية.

- في عام 2003 وسبتمبر 2005، عمّ السلام مرّة أخرى للمنطقة.

نافذة حول تاريخ العلاقة مع القوى الأجنبية

في عام 1869، كان الدكتور ناختيغال، (الجاسوس الألماني الذي أرسله بسمارك للمنطقة) أوّل أوروبي تطأ قدماه المنطقة حيث نزل بمدينة زووار عاصمة تيبستي دون الحصول على إذن. وقد تمّت إدانته من قبل التجمّع التقليدي وحُكم عليه بالإعدام بتهمة التجسس، واستأنف الحكم، ولكنّه التجمّع رفض قبول الاستئناف. ولم يُنقذه إلاّ صاحب السمو الملكي الأمير (آرامي تيتيمي)، الذي وفّر له الحماية والمأوى في (بيغاتشي) في عمق (دودويه) في وادي برداي. وبعد عودته إلى ألمانيا نشر كتابه "الصحراء والسودان".

ملاحم وبطولات في مقاومة العثمانيين وغيرهم من الغزاة

حصل التواصل بين الإمبراطورية العثمانية والتبو في عام 1560. إلاّ أنّ تلك العلاقة انفصمت وتحوّلت إلى صراع في أواخر القرن السابع عشر، عندما فضّل الأتراك سلطة (الميْنا) المحلّي على حساب سلطة (الدردي). في عام 1780، بادر (الدردي) بشنّ هجوم شرس ضدّ العثمانيين.

ردّ العثمانيون انتقاما لذلك وتسببوا في مقتل نحو ستين في المئة من سكان التبو، فكانت مجزرة بكلّ ما في الكلمة من معنى. عندها بدأ تبو التدا في شنّ هجمات متوالية على القوافل التركية في محاولة لتعطيل التجارة العثمانية. وفي عام 1890، أنشأ (الماي غيتي تشينيميمي) علاقات دبلوماسية مع الدولة العثمانية وبدأ في تلقي الأسلحة النارية. وفي الأثناء، قام (الدردي شهاي) بالتحالف مع العرب السنوسيين ووافق على أن يكون النصف الجنوبي من تيبستي بمثابة قاعدة ارتداد خلفيّة للسنوسية في نضالهم ضد جيوش المستعمر الفرنسي. وهكذا انقسمت منطقة تيبستي إلى

قسمين اثنين، احدهما "موالي للماي" في الجنوب الغربي و الآخر "مؤيد للدردي" في شمال شرق البلاد.

بمباركة من (الدردي)، أسّس السنوسيون زاوية في برداي، والتي كان لها دور كبير في تسريع الترويج لأسلمة منطقة تيبستي بشكل كامل.

مع اندلاع الحرب الإيطالية-التركية، تحالف السنوسيون مع الإمبراطورية العثمانية، وبناء على طلب من (الدردي)، أنشأ الأتراك حاميات في منطقة تيبستي بداية مارس 1911. إلاّ أنّ تلك الحاميات سرعان ما سقطت بعد بضعة أشهر، وهاجم التبو القوات التركية.

وفي حين احتلّ الإيطاليون فزان، دخل رتل من القوات الفرنسية إلى تيبستي في أوائل 1914 من جهة (كوار) خارقين اتفاق أُبرم مع (الماي) في الشتاء السابق، وأجبروا (الدردي شهاي) إلى الهروب إلى المنفى.

كانت منطقة التبو في ذلك الوقت تترنّح في قلب النزاع بين القوى الاستعمارية، مع وجود الإمبراطورية الإيطالية في الشمال وغرب إفريقيا الفرنسي في الجنوب. وخلال الحرب العالمية الأولى، أجبرت ثورة سنوسيّة الايطاليين على الانسحاب مؤقتا من فزان والجزء الشمالي الشرقي من سلسلة الجبال.

تحالف (الماي غيتي تشينيميي) مع أنصار (الدردي) وقاد المقاومة ضدّ القوات الفرنسية حتى تحقّق انسحابهم في عام 1916. إلاّ أنّ منطقة جبال تيبستي تعرّضت لاجتياح آخر من قبل الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية في عام 1929، ووضعت المنطقة تحت الإدارة الفرنسية لإفريقيا الاستوائية.

بسبب عزلتها ووضعها الجيو-سياسي، ظلت جبال تيبستي لفترة طويلة

غير مستكشفة وبمنآى عن طرق الرحالة والعلماء المستكشفين. إلاّ أنّ الألماني (غوستاف ناختيغال) الموفد من قبل (أوتو فون بسمارك) كان أوّل أوروبي يدخل منطقة تيبستي مستكشفا في عام 1869، وواجه صعوبات كبيرة.

قُبيل بعثة ناختيغال، حاول أمريكي صُحبة اثنين من المبشرين دخول سلسلة تيبستي، ولكنّه قُتل من قبل مُحارب من التبو. وفي حين قدّم ناختيغال وصفا دقيقا للسكان، فإنّ رواياته أثبطت الهمم لإطلاق أيّ مغامرات جديدة في تيبستي لأكثر من أربعين عاما، حيث أنّه أُدين من قبل التبو بالتجسس لصالح بسمارك ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخل من (الماي أرامي تتيمي). أمّا الحملات الاستكشافية اللاحقة والتي تمّت بين عامي 1920 و 1970، فقد أسفرت عن معلومات قيمة عن الجيولوجيا والصخور وغيرها من الثروات في السلسلة الجبلية.

هذا وقد عاش الأنثروبولوجي الفرنسي (شارل لو كير) وزوجته (مارغريت)، وهي عالمة جغرافيا، بين قبائل تدا في تيبستي بين عامي 1933 و1935. وكان (لو كير) أوّل شخص يوقم بدراسة سكّان منطقة تيبستي عن كثب، ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية منعه من نشر بحثه. وقد نشر الكولونيل الفرنسي (جان شابيل) كتاباً عن التبو ونمط حياتهم في عام 1957.



تبو الصحراء

معاناة البحث عن موارد شحيحة في أرض قاحلة *

يحتلّ التبو حوالي ربع الصحراء، شرق بلاد الطوارق.[1] وتمتدّ أراضيهم من بحيرة تشاد إلى جنوب ليبيا، ومن الغرب إلى الشرق من شرق النيجر إلى حدود السودان (الشكل 1). ويعيش بدو الصحراء[2] السّمر هؤلاء من تربية الموسّعة لقطعان الإبل والماشية والأغنام. أمّا تبو الشمال فيسمَّوْن تدا، وتبو الجنوب يسمَّوْن دزا. ويتحدثون لهجتين من نفس اللغة التي تنتمي إلى المجموعة النيليّة-الصحراوية: "تِداغا" و"دزاغا" على التوالي.

يتكوّن إقليم التبو في مُعظمه من مناطق صحراوية غير مأهولة. كما نجد فيه واحات نادرة من أشجار النخيل. وأهمّ تلك الواحات، واحة بوركو، التي تحدّها من شمال تشاد سلسلة جبال تيبستي (3415 مترا). لكن المنطقة الأكثر خصوبة وإلى حدّ بعيد الأكثر ازدحاما، فتتكوّن من تخوم جنوب الصحراء حيث تبدوا النباتات أكثر وفرة. وبفضل غطائها النباتي الذي يصبح أكثر كثافة كلّما تزايد هطول الأمطار باتجاه الجنوب، تصبح البيئة مناسبة لتواجد الثروة الحيوانية والإنسان. وبشكل تخطيطي بسيط، يمكننا تمييز ثلاثة أنواع من البيئات الطبيعية في الحيّز الذي يشغله التبو: الصحراء والواحات في الشمال والساحل فيى الجنوب.

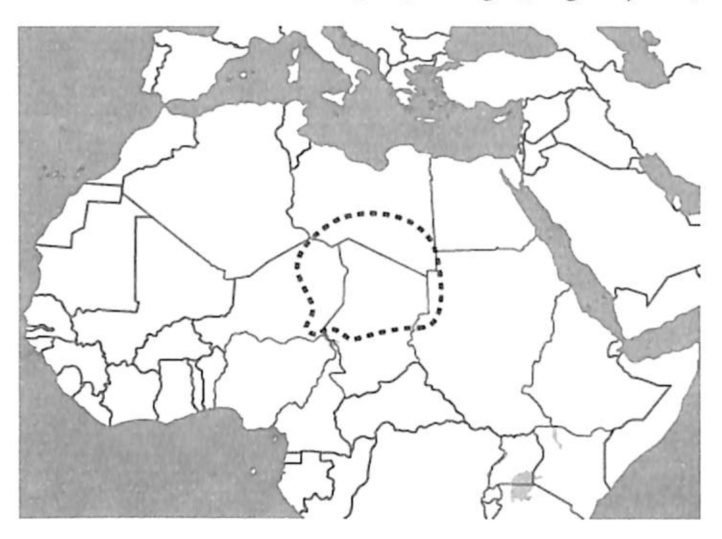
---

* بتصرّف عن كاثرين باروين

المناخ في الصحراء جاف وقاس، والنباتات غير موجودة إلا بعد مناسبات التي تهطل فيها الأمطار في بعض الأحيان بشكل غير متوقّع. ولكنّ، تلك الأمطار على ندرتها تساعد حيثما هطلت، نموّ مراعي ممتازة للجمال. فالصحراء إذا ليست فضاء فارغا، لأنّها تتيح للمزارعين موارد متفرقة من الضروري أن يعرف المرء كيفيّة الاستفادة منها من خلال جلب الحيوانات لها في الوقت المناسب. وعلى عكس ذلك، فإنّ إنتاج الواحة أكثر انتظاما، غير أنّ المساحات أقلّ أهميّة لأنّه لا يُمكن أن تكون هنالك واحة دون نبع ماء جار أو مائدة مائية على عُمق قليل. ويتولّى عدد قليل من المزارعين هنالك العناية ببعض البساتين المرويّة والزراعات الكبرى لأشجار النخيل التي تُعتبر الثروة الرئيسية.[3] والتبو دينا أكثر من هذه الواحات من أشجار النخيل. ويمتلك التبو الجزء الأكبر من أشجار النجيل في تلك الواحات، ولكنّهم يحتقرون العمل الزراعي والذي كثيرا ما يتركونه للمستأجرين. وهكذا فإنّهم لا يزورون الواحات إلاّ في موسم جمع المحاصيل والتي سواء تمّ استهلاكها أو بيعها، تكون هي دعما لا غنى عنه للقلّة من مربّي الماشية الذين يمتلكون أشجار النخيل.

في منطقة الساحل في الجنوب، تتساقط أمطار متفرّقة من شهر يونيو إلى سبتمبر يجلبها صعود جبهة ما بين الأقاليم المدارية باتجاه الشمال. إلاّ أنّها غير كافية للزراعة، ولكنّها تسمح بالتجديد السنوي لأعشاب المراعي القليلة الكثافة ووسرعة الجفاف. وكذلك نموّ بعض الأشجار المتناثرة، الشائكة في مُعظمها. وهي توفّر ظلاّ متفرقا وعلفا شجريّا إضافيا للإبل والماعز. غير أنّ المخاطر تظلّ كبيرة، وكثافة المراعي العشبية تختلف اختلافا كبيرا من مكان لآخر ومن سنة لأخرى. وكلّما نزلنا أكثر باتجاه الجنوب كلّما

كانت الأمطار أوفر، والأعشاب أكثر كثافة والأشجار أكبر حجما وأكثر عددا. وتُصبح تربية الأبقار ممكنة، حتى إذا اختلفت كميات الأمطار اختلافا كبيرا من سنة إلى أخرى (الشكل 2). وفي حال سقطت، خلال سنة مطيرة في مكان ما أمطار بنسبة ثلاث مائة ميلمتر، فإنّ تلك البقعة لن تحصل خلال سنة جفاف إلاّ على أقلّ من مائة ميلمتر،



الشكل (1): مناطق التبو

أو ربّما لن تحصل على أيّة أمطار على الإطلاق. وتكون الكارثة: فالغياب التام للعشب يضطرّ الرعاة لسوق مواشيهم بعيدا إلى الجنوب بحثا عن المراعي. وربّما قد يتعيّن عليهم قطع مسافات تصل إلى أربع مائة كيلومتر للعثور على موارد رعوية تعادل ما يُصيب منطقتهم المعتادة في عام غزير الأمطار.

تعتمد تربية الحيوانات أيضا على مدى توافر المياه. في منطقة الساحل،

تتشكّل في مواسم الأمطار، "قلات" أو برك مياه تأتي القطعان للشرب منها، ولكنّها سرعان ما تجف، ويجب اللجوء للاستفادة منها في الري أيضا. وهي ضروريّة طوال الموسم الجاف، من سبتمبر إلى يونيو أو يوليو. أمّا نقاط المياه الأكثر عددا فهي الآبار التقليدية المسنودة بالخشب التي يبنيها التبو أو حرفيوهم. ويتمّ استخراج الماء عن طريق دلو يعلّق على الحبل، ويتمّ رفع الدلو باليد أو عن طريق عمليّة سحب يقوم بها حيوان. ويجري الحبل على بكرة مثبّتة فوق فوّهة البئر، ويشدّ طرفه الآخر إلى حمار أو جمل يقوم كلّما مشى



الشكل (2): نجع للتبو

بعيدا عن البئر بسحب الدلو المملوئة ماء. وتمثّل عمليّة السقي عملا روتينيا مضنيا خاصة وأن محدودية منسوب المياه في تلك الآبار تحول دون سقي عدد كبير جدا من الحيوانات. في أماكن تجد آبارا إسمنتية أو إرتوازية بدلا من هذه الآبار التقليدية. ويشكلّ منسوب دفق مياهها عامل جذب

للعديد من مربي الماشية، ولكنّ تركيز الثروة الحيوانية كثيرا ما تتسبّب في توتّر وتجلب مخاطر التصحر في المناطق المحيطة بالبئر. (الشكل 2)

بالإضافة إلى المرعى والمياه تُعتبر الأملاح المعدنيّة ضرورية من أجل أن تتمتّع الحيوانات بصحّة جيدة. وبالتالي فإنّ مربّي الماشية يسهرون بانتظام على أن يوفّروا لها مادّة النطرون، كربونات الصوديوم التي تظهر في شكل لويحات بنيّة اللون في بعض المياه الضحلة حيث يقوم التبو بجمعها بأنفسهم، ما لم يتمّ شرائها في السوق.

لا يُمكن لنا هنا انهاء هذا الجرد السريع للموارد المتوفرة في مناطق التبو دون ذكر الصيد وجمع الثمار على الرغم من أنّ التبو، - وهي مسألة ميول - لا يمارسون لا هذا ولا ذاك. أمّا الأطفال الذين يُعهد لهم رعاية الماشية في الأدغال يصطادون عن طيب خاطر القوارض والطيور لأكلها، ولكن ليست سوى غذاء تكميليّا والكبار يعتبرون مثل هذا النشاط لا يليق بهم. وكذلك، فإنّ الأطفال فقط أو النساء هم من ينغمس دون حياء في جمع الثمار إذا سنحت الفرصة. ويتغذون على عدد قليل من التوت أو الفواكه البرية مثل فاكهة النبق (العنّاب أو السدر الموريتاني)، أو صمغ (علكة) بعض الأشجار. على الرغم أنّه في القديم، وفي أوقات القحط، لم يكن التبو ينكفون عن ممارسة جني الأعشاب البرية، ولكن هذه العادة قد اختفت تقريبا. أمّا بالنسبة لصيد الفرائس الكبيرة، فقد كانت من اختصاص طبقة الحرفيين - الحدادين، الأزا،[4] فهم ينظمون الصيد الكبير بالشباك والتي تسمح بذبح قطعان كاملة من الظباء أو الغزلان، ويتمّ تجفيف لحومها. ولكن الحيوانات المجترة البرية باتت نادرة إلى حدّ كبير في الوقت الحاضر بسبب انتشار الأسلحة النارية. وبالتالي وهكذا أصبح الصيد وجمع الثمار حتى بالنسبة

لقبيلة الأزا أنشطة اقتصادية ذات أهمية قليلة، فالماشية هي التي توفر المورد الأساسي لعيش الرجال.

هنالك ملاحظة واحدة ضرورية تفرض نفسها هنا. وبصرف النظر عن بعض الواحات القليلة المواتية لزراعة الحدائق وبساتين النخيل، فإنّ فضاء التبو، الذي يتألف من الامتدادات الصحرواية الشاسعة ذات النباتات قصيرة العُمر، ومن السباسب العشبيّة وسهوب السافانا ذات الشجيرات الصغيرة، لا تصلح جيّدا إلاّ لنمط واحد من الاستغلال، تربية قطعان الماشية على نطاق واسع. ويتميّز هذا بتنقّل القطعان على مساحات شاسعة، فالغطاء النباتي الخفيف يجبر مربّي الماشية على البحث عن مراعي جديدة لحيواناتهم بدون توقّف. وتقلبات المناخ تفرض عليهم التكيّف كلّ عام مع مسارات جديدة، حتى وإن كانوا يفضلون، كلّما أمكن ذلك، تتبّع نفس المسار. وبالتالي فإنّ حرية التنقل هي شرط البقاء على قيد الحياة، الأمر الذي يتطلب مرونة كبيرة في إدارة المناطق.

واستجابة لهذه الضرورة، هنالك قاعدة عامة: المراعي ليست للتملّك. ويستفيد منها من يأتي إليها أوّلا. ولكن ما لم تكن هنالك حالة جفاف استثنائية، فإنّ كلّ عائلة تعود في كل عام نوعا ما من نفس المسارات وتتكوّن عادات، وقد لا يلقى شخص غريب قبولا حسنا، لا سيّما إذا جلب معه الكثير من الحيوانات في منطقة رعي محدودة. وقد يحظى بقبول أفضل إذا كان لديه أقارب، حتى بعيدين، بين المنتظمين في المكان، لأنّه لا يمكن رفض تقديم المساعدة لأحد الأقرباء.

توجد نفس المرونة في استخدام المياه. فبرك المياه المؤقتة التي تتشكّل في مواسم الأمطار، مفتوحة للجميع مثلها مثل المراعي. ولكن الوضع يختلف

كثيرا بالنسبة للآبار. ووفقا للاستخدام المشترك لجميع المجتمعات الرعوية في الساحل والصحراء، لا يمكن إنكار المياه لمربّي ماشية أتى بمواشيه إلى البئر. يُمكنه سقي حيواناته، ولكنّه يجب أن ينتظر لساعات طويلة أحيانا حتى ينتهي مستخدمو البئر المنتظمين من سقي مواشيهم. وفي الواقع، فإنّ كلّ بئر تقليدية هي على ملك الشخص أو الأشخاص الذين حفروها بأيدهم أو استأجروا من يحفرها لحسابهم، وبالتالي تعود لهم أولويّة استخدامها. وبما أنّ معدّل تدفّق المياه منخفض نسبيّا ولا يسمح بسقي سوى عدد محدود من الحيوانات، فإنّ مربّي المواشي الغرباء يتجنّبون قيادة قطعان كبيرة جدّا. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ هذه الآبار لا تدوم طويلا، فبعد سنة أو سنتين، كثيرا ما ينهار خشب إسنادها بسبب ظهور الأخاديد في التربة، فيبحث مستخدموها عن مكان آخر لسقي حيواناتهم ما لم يقرّروا حفر بئر جديدة في أقرب وقت ممكن في مكان قريب من البئر الأولى. وإذا غادروا ذلك المكان بشكل نهائي، يُمكن لمربّي مواشي آخرين لا علاقة لها بالسابقين التمركز في المكان لحفر بئر جديدة تكون على ملكهم ويتمتعون بحقّ أولوية استخدامها.

تخضع الآبار الإسمنتية التي بُنيت في فترة الستينات من القرن الماضي (1960) لنفس الحقوق التي تنظّم الآبار الخشبية المسنودة بالخشب وذلك عندما يتمّ حفرها في مكان تّمت حيازته فعلا منذ زمن طويل: فلكيتها تعود عادة لعائلة أو مجموعة اجتماعية معيّنة. ولكن في كثير من الأحيان يتم حفرها هم في مواقع جديدة، مثل الآبار الارتوازية، وبالتالي لا يكون لها سوى صاحب واحد منتظم. وهذه الآبار ذات التدفّق العالي تجذب العديد من المربين، ولكن هذا التركيز يمكن أن يكون سببا في نزاعات ويجلب التصحر

في جميع المناطق المحيطة بالآبار، بسبب زيادة عدد الحيوانات في مراعي تتعرّض للاستفاذ بسرعة.[5] ولذلك يبدو أنّ آبار التبو التقليدية، على الرغم من قلّة فعاليتها من الناحية الفنية، أكثر ملاءمة من هذه المعدّات الحديثة للتشتّت الضروري للرعاة وتسمح بالحدّ من الصراعات مع الحفاظ على التناسب.



الشكل (3): سقي الإبل

لاستغلال هذه البيئة الطبيعية الصحراوية الساحلية الهشة وغير المؤكّدة، يبدو التنقل ضروري ويسهّله سكن التبو الخفيف، حيث أنّ كلّ بيت شعر وأثاثها يُمكن نقل على ظهر بعير واحد. لكن القدرة على التنقّل وحدها لا تكفي، بل يجب أيضا وجود انسيابية عامّة للحركة، ويحسن تنفيذها بوحدات تصرّف صغيرة بدلا من كبيرة. فإيجاد المرعى لقطيع صغير يتنقّل بسرعة ويرضى بمرعى صغير الحجم، أسهل من إيجاد ما يلائم قطيع كبير جدا، يحتاج إلى مراعي كبيرة، ويحتاج أيضا إلى جُهد أكبر للحراسة

والسقي. فالتنظيم الاجتماعي للتبو يستجيب لهذه الحاجة من المرونة والانسيابية. (الشكل 3).

يتكوّن مجتمعهم في الواقع من عدد كبير من وحدات الاستغلال الصغيرة، المستقلة والحرّة في تنقّلها. وتتكوّن كلّ وحدةمن أسرة نوويّة (الأب والأم والأطفال) تدير بشكل مستقل قطيعا الخاص بها من خلال تقسيم العمل بمرونة كبيرة بين أعضائها. فالأطفال، ومنذ نعومة أظفارهم، يشاركون في المهام. ففي حين تساعد الطفلة أمّها في الأعمال المنزلية (جلب الماء والحطب، الاعتناء بمن يصغرنها سنّا، ورعاية الحيوانات الصغيرة)، يقوم الصبي بمراقبة موعد دوره في السقي عند البئر، ويوجّه حركة الحمار أو الجمل جيئة وذهابا لإخراج الماء من البئر بوساطة الدلو. وعندما يُصبح أكبر سنّا توكل إليه مهمّة حراسة قطعان الماشية الصغيرة في المراعي. يشارك الجميع فتيانا وفتيات، رجالا ونساء، في روتين العمل الشاق المتمثّل في السقي. ولكن تعود للرجل وابنه مسؤولية مراقبة القطعان والبحث عن الحيوانات المفقودة، وللمرأة مهمّة حلب البقر والطهي. وعندما تنقص القوى العاملة، فإنّ الأشغال التي كانت تُدار بدقة من أفراد العائلة تُصبح مفتوحة على المساعدات الخارجية، على سبيل المثال فإنّ مربين اثنين، بينهم قرابة عادة، يمكن أن يشتركا معًا في رعي قطعانهما، أو ربّما بستأجران راع بأجر مدفوع، في حين أنّ المرأة بدون طفلة قد يُعهد لها بطفلة من أقاربها لمساعدتها.

تختلف الرعاية المطلوبة من قبل المواشي اعتمادا على ما إذا كانت إبل (وهو الاصطلاح المتداول استخدامه في أفريقيا، على الرغم من أنّها جمال)، أبقار أو أغنام. ويجب التنويه هنا أنّ السياسة الرعوية لمربّي المواشي في

الصحرء والساحل هي نفسها في كلّ المنطقة. فهم يربّون في الغالب الإناث من أجل الحليب والتكاثر، لأنّ الحليب يمثّل إلى جانب الدخن المادة الغذائية الأساسية، في حين أنّ تكاثر القطيع هو وسيلة لزيادة رأس المال كما أنّه يوفر وسيلة تبادل. فلا يُحتفظ إلاّ ببضعة ذكور لاستخدامها للركوب، للحرث والأعمال الشاقة أو كفحول للتكاثر. أمّا الحيوانات الأخرى فتُباع في السوق، ممّا يسمح بشراء الدخن والشاي والسكر والتوابل ومختلف المشتريات الأخرى: الملابس، والأواني، والبطانيات، الخ... لذلك فإنّ قطعان التبو تتكوّن أساسا من الإبل في الشمال عند تبو تدا والجمال والأبقار في الجنوب عند تبو الدزا. وقد يُضاف إليها عند الاقتضاء الأغنام وهي أقلّ قيمة، وتمثّل مخزونا من اللحوم في شكل حيوانات حيّة تُذبح في مناسبات الأفراح أو لتكريم ضيف مميز، وتُستخدم أيضا كعملة للتبادل لتغطية النفقات الصغيرة.

تتفرّق الإبل، غير القطيعية، على مسافات كبيرة بحثا عن الكلأ، وهي تتطلب اجتهادا أكثر من حيث الحراسة لأنّها عادة ما تكون عُرضة لخطر كبير وهو السرقة. أمّا الأبقار فعلى العكس من ذلك، تبقى مع بعضها البعض، ولا تذهب بعيدا ولا تتطلب إشرافا كبيرا، ولكنّها تحتاج للسقي بشكل أكثر تواترا. لمعالجة هذه المطالب المتباينة، يتعيّن على الأسرة أن في كثير من الأحيان الانقسام. فالرجال يتبعون الإبل في حين تتولّى النساء العناية بالمنزل وبقية القطيع. وهذا هو الحال بصفة خاصة في منطقة الساحل، حيث يجد المزارعون أنفسهم مجبرين خلال الموسم البارد على سوق إبلهم إلى الشمال لتتمتّع بالمراعي المالحة والخشنة (وخاصة نبات الزري، أو كونولاكا موناكنثا) وهو ضروري من أجل تمتعها بصحة جيدة.

وفي الغالب فإنّ الشباب المتزوجين أو غير المتزوجين هم من يذهب هناك، لأنّ الحياة في الصحراء صعبة وشاقّة. والرجال الكبار في السنّ عادة ما يعهدون بحيواناتهم لواحد أو أكثر من ابنائهم، إلاّ في حال استأجروا راعيا إذا كانوا أثرياء بما فيه الكفاية. والنساء التبو، اللواتي اعتدن هذه الغيابات الطويلة، يتحمّلن لوحدهنّ خلال هذه الفترة عبء الاعتناء بمنازلهن والثروة الحيوانية المتبقية فيها.

تكيّفت هذه الوحدات الإنتاجية الصغيرة، والتي تتشظّى أو تنقسم خلال شطر من السنة، بشكل جيد مع مرونة الحركة الضرورية للبقاء على قيد الحياة في هذه البيئة الهشة. ولكن صغر حجمها يجعلها عُرضة للخطر، فمجرّد مرض الرجل أو المرأة، وفي حال لم يكن لديهم أطفال أو كان أطفالهم صغارا جدا لتقديم يد المساعدة، قد يؤثر سلبا على استقلالية الأسرة. وفي مثل هذه الظروف، تأتي أهميّة روابط التضامن بين أسرة وأخرى: فالأُسر تعتمد على بعضها البعض عند الضرورة، وذلك من خلال علاقات متعدّدة بين الأشخاص.

تتأسّس هذه العلاقات وتتضاعف بين التبو عن طريق نظام الزواج الأصلي، والذي من المهمّ وصف أركانه بالتفصيل لفهم الأشكال الضيقة للتضامن التي يؤسّس لها. من وحدة عائلية إلى أخرى، والتي ظلّ قائمة طوال الحياة. وعلى عكس ما يُلاحظ في جميع المجتمعات الرعوية الأخرى المحيطة بهم، فإنّ الزواج عند التبو يُمنع منعا باتا بين الأقارب. وهو حرام، كما يقولون، "إلى حدود الجدّ الثالث" أي الجد الثالث المشترك. وتتمتّع القرابة من جهة الأمّ بنفس وزن وأهميّة القرابة من جهة الأب، فالجدّة الثالثة المشتركة تشكّل عائقا أمام الزواج بقدر ما تمثّله القرابة من جهة الجدّ.

والنتيجة المباشرة لهذه القاعدة -بما أنّه يحظر الزواج بين الأقارب- هي أنّه يُصبح من الضروري عقد الزيجات الجديدة بعيدا خارج دائرة الأقارب. وتساهم هذه العمليّة إلى حد كبير في إندماج السكّان وهو ما يميّز عالم التبو، وأيضا في الانتشار الجغرافي للعشائر المترابطة بالأنساب الأبوية.

بالنسبة للزواج الأوّل، لا يتمّ إقرار اختيار شريك الحياة إلاّ بموافقة جميع الأفراد أقارب الشاب أو الفتاة. وهذا الاتفاق ليس مجرّد إجراء شكلي، لأنّ لعبة المساهمات الزوجية تفترض المشاركة النشطة من كلّ هؤلاء الأشخاص. لكي يتزوج، يجب على الشاب أن يدفع لشريكة حياته المستقبلية "مهرا" أو تعويضا مرتفعًا يصل إلى عشرة جمال كبار، أو مبلغًا مساو من الشاي والسكر، وهو الأمر الذي يتطلب بيع قطيع من الماشية في السوق يقدّر بين عشرين وثلاثين رأسا من الأبقار أو الإبل من مختلف الأعمار. والشاب المقبل على الزواج لا يمتلك هذا العدد من الحيوانات، بل يطلب بعضا منها من والده وإذا أراد الحصول على البقيّة، فإنّه يقوم بزيارة لمختلف أقاربه من جهة الأب والأم حيث يعطيه كلّ واحد منهم رأسا ن الماشية. وبينما يقوم بجمع هذه الثروة الحيوانية، وهو ما قد يستغرق عامين أو أكثر، يقوم الشاب بدفع المهر لوالد زوجته المستقبلية بالشكل الذي يحدّده هذا الأخير. وهكذا، فإنّ هذه المرحلة الأولى من التبادلات الزوجية، هي المناسبة التي يقوم فيها أقاربه من جهة والديه بالمساهمة في تغطية تكاليف المهر الزواج.

ولكن الأمور لا تقف عند هذا الحد. وإذا احتفظ والد العروس بجزء من هذه الهدايا، فإنّه يوزّع معظمها على أقارب ابنته من جهة الأب والأم. وبالتالي يستفيد كلّ أقارب العروس من عمليّة إعادة التوزيع هذه. وبالمقابل

تتطلّب منهم هذه الهدايا إظهار كرمهم في المرحلة الثالثة من تبادل الهدايا والتي تقع يوم الزفاف. يقوم والد العروس بتنظيم الحفل ويجمع حشدا كبير لأنّه عادة ما تتمّ دعوة كلّ أقارب الزوجين، ويتمّ عرض قطيع مخصص للعريس الجديد أمام أعين الجميع وسط الاحتفالات وفي غمرة من الحماس العام. ويتكوّن القطيع من الحيوانات التي تقدّم إليه واحدا تلو الآخر من كلّ أقارب العروس الذين تلقوا من والدها، في المرحلة السابقة، جزءا من التعويض (أو مهر الزواج).[6] وبالتالي فإنّ عدد الحيوانات التي يستلمها العريس يرتبط ارتباطا مباشرا بمبلغ مهر الزواج الذي كان قد دفعه في الأصل. وقد يبلغ في الزواج الأول إلى عشرين أو ثلاثين رأسا من الماشية أو الإبل، وخاصة الإناث (النوق) وبفضل هذا القطيع يتمكّ، الزوجان الشابان من تركيز استقلالهما الاقتصادي. وبعد عدة سنوات لاحقا، وعند ولادة طفل على سبيل المثال أو حتّى دون مناسبة ضرورية، يستمرّ أقارب الزوجة في تقديم حيوانات جديدة لهما. وعلى مرّ السنين، فإنّ عدد الحيوانات التي تُضاف إلى القطيع يمكن أن تصل إلى عشرات أو أكثر.

بالطبع هذه الثروة الكبيرة التي يحصل عليها الزوج من عائلة زوجته ليست بدون مقابل. ففي حال احتاج أحد أقاربه بالمصاهرة إلى المساعدة بعد ذلك، أو إذا قدم أحد الشباب من أقارب الزوجته يلتمس المساعدة بغرض الزواج، لا يمكن للزوج رفض تقديم المساعدة له، تماما كما لا يمكن رفض مساعدة أحد الأقارب المباشرين. وهكذا فإنّ هذا النظام المعتمد في الزواج، في الوقت الذي يؤسّس لتكوين قطيع للأسرة يُمكّن العروسين الجديدين من الاستقلال الاقتصادي، فإنّه يخلق لكلّ شخص شبكة من العلاقات الداعمة القابلة دائما للتفعيل والتنشيط، بين عائلته

وعدد كبير من الخلايا الأسريّة الأخرى التي رغم استقلاليتها الشكلية تظلّ متضامنة بنفس القدر.

على أساس علاقات القرابة بالدم والمصاهرة، تشكّل هذه الروابط بين الأفراد الذين قد يكونون متباعدين كثيرا جغرافيا عن بعضهم البعض، شبكة غير رسمية يكون هو مركزها. ولكن تتداخل شبكات كلّ واحد مع شبكات الآخر تدريجيا، لتشمل المجتمع كله. وهذا التواتر للشبكات هو ما يؤسّس لأصالة الجانب الاجتماعي للتبو. وليس هنالك من رئيس يمارس سلطته على مجموعة محدّدة جدّا، لأنّ كلّ فرد يعتبر نفسه سيّد نفسه ويعتقد أنّه ليس مسؤولا أمام أحد. وليس هنالك إطلاقا أي دور مهيمن للعشائر لأنّها موزّعة جغرافيا ومشتّتة. ويمثّل هذا التشتت أيضا مكسبا للمسافر الذي يجد المساعدة بسهولة أينما ذهب. كما يدخل تضامن العشيرة أيضا في المسائل المتعلّقة بالشرف، وخصوصا للثأر لحادثة سرقة مواشي أو قتل.

هذا الترابط الاجتماعي الذي يتخذ شكل شبكة يعوّض عن أي شكل آخر من الأشكال الاجتماعية والسياسية أو الإقليمية. لا يوجد تنظيم إقليمي حقيقي بين التبو، عدا فيما يتعلّق بنظامهم المرن جدا بشأن أولويّة الوصول إلى الآبار أكثر من المراعي، التي ليست حصرية أبدا. ما يهمّ لدى التبو ليست العلاقة بالأرض، ولكن الروابط مع الأقارب.

هوامش:

1- كاترين باروين، تبو الصحراء.

2- حسب عنوان الكتاب (1957) الذي خصصه جان شابيل لهم.

3- كاترين باروين وبي. أف. بريت "واحة بوركو..."

4- كاترين باروين، "المهيمِن والمهيمَن عليه..."

5- كاترين باروين، "الطاقة المائية الرعوية..."

6- كاترين باروين، "الفوضى والترابط..."

الباب الثالث

مظاهر من ثقافة تبو الصحراء وتاريخهم

التواضع وآداب المائدة والطعام

عند التبو

كاترين باروين*

ملخّص

تشكّل آداب المائدة عند التبو الرعاة المسلمين في وسط الصحراء عُرفا صارما ومنظما، يتميّز كثيرا بفكرة التواضع. وفيما وراء المجال البسيط للإطعام، تشكّل هذه القواعد قيمة أخلاقية أساسية يظهر تأثيرها في جميع مجالات الحياة الاجتماعية. وإذا كانت آداب الأكل عادة ما تتوافق مع تعاليم الإسلام، فإنّ قواعد المنادمة (من يأكل مع من وفي وجود من) يبدو من خصوصية هذا المجتمع وبذلك يترجم عن مبادئه التنظيمية الكبيرة. وهو ما يشكّل مفتاحا مهمّا للتحليل السوسيولوجي الذي يستحق كلّ اهتمامنا.

في كتابه "أصول آداب المائدة"، يرى ليفي شتراوس تلك الآداب من خلال الطريقة التي أُخرِجت بها في الأساطير، ويواصل تحليله المطوّل في هذا المجلد الثالث من كتابه الشهير Mythologiques (أو خرافيّات/ دراسات ميثولوجية)، ليقول في الختامة: "الحمية الغذائية، والآداب الحسنة، وأواني الأكل أو طرق حفظ الصحّة، كل وسائل الوساطة هذه... تعدّل تبادلاتنا مع العالم." (1968، ص 421). ولهذه القواعد دور رئيسي يتمثّل في

الفصل بين النقي والنجس، بغرض حماية أنفسنا من مخاطر النجاسة أو الشوائب. ولكن آداب المائدة قد ينظر إليها أيضا من زاوية نظر أخرى لم يتناولها ليفي شتراوس، ويمكن أن تتكثّف في قول مأثور قديم نعيد صياغته كالتالي: "قل لي مع من تأكل، أقول لك من أنت."

في الواقع، تنقسم الآداب الحسنة إلى شقّين. فهي لا تملي فقط الكيفية التي ينبغي أن نتناول بها الطعام أو الشراب، بل تُذكّر أيضا بقواعد المنادمة (أي مع من وفي حضور من يُمكن لنا أن نتناول طعامنا)، وهذا الشق الثاني من القواعد يكاد يكون غير مبلور في مجتمعنا (أقصد المجتمع الفرنسي) ولكنّه ربمّا كان متطوّرا أكثر من ذلك بكثير في بلدان أخرى، ولا سيّما في إفريقيا. ومع ذلك، فهو لا يحظى في الدراسات الاثنوغرافية إلاّ بإشارات متناثرة.

نحن نهتمّ بهذه القواعد عند التبو لعدّة أسباب. أوّلا لكونها تشغل عند رُعاة وسط الصحراء جزءا كبيرا من الحياة اليومية، حيث أنّها تضع قيودا متعدّدة. ثم لكونها تشكّل كلاّ متماسكا. وأخيرا وليس آخرا، أنّ قواعد اللياقة هذه ليست مجرّد إجراء شكلي، بل تشير إلى النظام الاجتماعي الذي تعبّر عنه؛ فهي تعكس بطريقة معينة نوعا من التنشئة الاجتماعية والتي تُعتبر سمة من سمات التبو، والتي لا نلاحظها ليس فقط فيما يتصل بالطعام، ولكن في العديد من المجالات الأخرى للحياة الاجتماعية. وهذه "الطريقة للاجتماع فيما بينهم" والتي تُعتبر من خصوصياتهم، وهي الوسيلة لمقاربتها بالتحليل.

نبدأ أوّلا بوصف عام لنوعية غذاء هؤلاء الرعاة، وقدرتهم على الامتناع عن الطعام والذي يغرسوه في أنفس أطفالهم في وقت مبكر، ثم نبرز بعد

ذلك كيف أنّ قواعد المنادمة تشكّل كلاّ معقدا ودقيقا، حيث أنّ مفهوم الحياء (nungo) أمرا بالغ الأهمية. والمفهوم الفرنسي للحياء أو المصطلح القريب منه وهو "الحياء" (أو الخجل)، والذي يستعمل بشكل أكبر في كثير من الأحيان في أفريقيا، لا يعبّر بشكل دقيق عن مفهوم واسع الانتشار في هذه القارة ولكن دون أن يكون له مقابل دقيق في لغتنا. فهو نوع من الامتناع الذي يُعبّر عنه بنوع بالتحفّظ في السلوك ويمثل مدى الاحترام تجاه الآخرين. وكما يقول أم. سي. و إي. أورتيغيز (M.-C. et E. Ortigues) عن السنغال، "أن تتمتّع بالحياء هو أن تعرف قدر نفسك ومكانتك" (1953، ص 53). وبالتالي فإنّ احترام قواعد الندامة يعني إظهار ذلك الحياء وهو دليل على أنّ المرء يعرف كيف يبقى في المكان الذي حدّده له المجتمع." ف"الحياء" (أو الحشمة) إذا ليس مجرّد شعور شخصي داخلي جدّا، بل هو أيضا وقبل كلّ شيء ظاهرة اجتماعية، وبهذا بالمعنى فهو يهمّنا هنا.

شعور الحياء والتواضع الذي ينعكس في "آداب المائدة" عند التبو يمتد أيضا إلى العديد من المجالات الأخرى. وهذه القواعد، كما سنبيّن لاحقا، هي جزء من مدونة سلوك أكثر عمومية، حيث يكون معنى الحياء موجود بشكل كلّي وتحثّه قيود جدُّ عالية. وهذه القواعد لا تنطبق فقط على أفعال الأكل والشرب، بل وتُملي على كلّ واحد سلوكه اليومي بكلّ تفاصيله الدقيقة. فكلّ واحد يعلم دائما وفي كلّ وقت في حضور من ومع من يُمكنه القيام بأي تصرّف، سواء تعلّق ذلك بالذهاب إلى البئر، أو دخول خيمة، أو أخذ الكلمة، الخ. فمسألة الترابط بين آداب المائدة بمعنى الحياء والتواضع وغيرها من جوانب الحياة الاجتماعية، تقودنا للوصول إلى النقاش الرائد الذي أطلقه (نوربرت إلياس) Norbert Elias حول هذا الموضوع. وسوف نقوم

باستجلاء المدى العام لاستنتاجات هذا الكاتب، الذي تغطي دراسته ألف سنة من التاريخ الأوروبي، في ضوء حقائق حياة التبو

حياة الصحراء وتعلّم التواضع

إنّ التبو أو ما يسمّى بتدا- دزا (والذين ينتشرون ويُعرفون بشكل واسع في الشمال بتبو تدا وفي الجنوب بتبو دزا،) يستوطنون ربع الصحراء شمال بحيرة تشاد. ويمارسون تربية القطعان على نطاق واسع وخاصة الأغنام والإبل والماشية على التخوم الساحلية للصحراء. ويبدو موقفهم من الغذاء موقف شائع في كل المجتمعات الصحراوية. ويتميز بكرم الضيافة والتواضع. (إي. دي غارين، 1990، ص. 1537). والتبو مسلمون، مثل غيرهم من البدو مربّي القطعان في الصحراء الساحلية من حولهم، ويبدو أنّ ملاحظات (ايغور غارين) بشأن موقف الإسلام بشكل عام من الطعام تنطبق بشكل كبير عليهم. فليس فقط أنّه يفضّل في العالم الإسلامي تناول الطعام باليد اليمنى و"الأكل بحشمة" (إي. دي غارين 1990، ص. 1549)، بل إنّ الديانات "اليهودية والمسيحية والإسلامية... ما زالت تتبنّى موقفا يتّسم بالاحترام والتواضع والشعور بالذنب فيما يتعلق بتلبية الاحتياجات الغذائية" (1990، ص. 1553).

هذا هو الوضع بين التبو، حيث نجد أنّ "الحياء" تجاه الطعام أمر لافت للنظر بشكل خاص. ولا شك في أنّ هذا السلوك ليس غريبا على قساوة بيئتهم الطبيعية. ولمواجهة ذلك، يتلقى الشباب التبو الشباب منذ الصغر تربية صارمة جدا بهذا الخصوص. فيتعلمون في وقت مبكّر جدّا أنّ الشراهة سلوك مخزٍ للغاية وبالتالي عليهم كبت أي مظهر من مظاهر الشراهة بشكل منهجي. وحسب وصف (جان شابيل):

"يتعلّم الأطفال تحمّل المشقة والحرمان. ولتجنّب تحوّلهم إلى أكلة نهمين، يُحرمون من أي طعام دسم بين وجبات الطعام. وإذا طالبوا بتناول الطعام، لا يُعطون إلاّ الحليب. وعلاوة على ذلك، لا تكاد تكون هنالك حاجة إلي خدع لتعليمهم عدم الإسراف. فكثيرا ما يحدث أن تكون الخيمة خاوية لا مؤن فيها، وبالتالي فإنّ صغار التبو يتعوّدون منذ وقت مبكّر على الجوع.... [فعدم الإسراف] يعلّمهم كيف "يصمدون" أمام الجوع إلى حدود تفوق التصوّر". (1957، ص 267).

يلاحظ (جان- شارلز كلانيه)، أيضا، قسوة تعليم الجمّالين الصغار في حوض تشاد، والمهامّ الثقيلة المسندة إليهم. فالصبي، كما يقول، يقضّي في كثير من الأحيان أياما طويلة وحده وهو يحرس الحيوانات في المراعي، دون طعام تقريبا، وفي المساء "عند عودته، من المألوف وخاصة بين التبو، أن لا يتهافت على الطعام وأن لا يطلب أن يشرب قبل أن تقدّم له والدته الشراب". (2002، ص 156).

هذه القدرة على الصبر والتحمّل المكتسبة منذ الصغر تتواصل حتىفي الكبر، وقد أثارت إعجاب المستكشف الألماني (غوستاف ناختيغال). ولاحظ كيف أنّ هذه الصفة تتناقض مع مما لدى مرافقيه العرب: "وقد أوضح جاري من أصل دزا من خلال صبره وجلده كم أنّ إبداء أي علامة شره لتناول الطعام أو الشراب هي أمر مرفوض تماما بين شعبه". (1974، ص 382).

الأغذية الطبيعية (البرّية)

للتغلب على نقص الغذاء طوال اليوم، "يقوم الأطفال بالتعويض عن

ذلك كلّما استطاعوا –كما يقول لنا شابيل-، فالبحث عن الأعشاش، ونصب الفخاخ لصيد الطيور، وجمع التوت الذي هو امتياز طفولتهم ليس مجرّد لعب." (1957، ص. 267-268). ويذكر (كلانيه) في نفس السياق، حالة صبي راع من التبو يبلغ من العمر حوالي ثلاثة عشر عاما التقاه في الأدغال في النيجر في عام 1997. ويعتبر ذلك نفسه سعيدا بقدره لأنّه "يستخدم الفخاخ لصيد العديد من الطيور، التي كان يشويها، ويأكل الكثير من الكمأ البري المتوافر في المنطقة... وكان يسخر من شقيقه (تسع سنوات) والذي بسبب عدم استساغه للكمأ كان يُتخم معدته باللبان العربي الذي كان يجمعه طوال اليوم من أشجار السنط." (2002، ص. 157).

كانت الأطعمة الطبيعية المتوفرة في البرّية إلى جانب الحيوانات الصغيرة والطيور التي كانوا يصطادونها بالشراك بأنفسهم تشكّل للرعاة والأطفال الصغار بشكل عام أغذية تكميلية ذات قيمة عالية. كما تتناول النساء أيضا مع أطفالهن الثمار البرية المتوفرة في الأدغال، مثل العنّاب (النبق أو السّدر الموريتاني) أو التوت الأسود الصغير الحلو المذاق من شجرة الأويو (أو الأراك). عادة ما تؤكل هذه الأطعمة على الفور أو تؤخذ إلى المخيم ليضاف إليها، حسب ما يقتضيه الحال، إمّا الحليب أو القليل من الزبدة. أمّا ثمار "أولو" (الهجليج المصري)، عندما نقطفها عادة ما نطهيها للحدّ من طعم المرارة فيها. أمّا بالنسبة للحبوب البرية مثل "ديجيري" (من فصيلة النجيليات) أو "الأونتول"، فهي اليوم مهملة إلى حدّ كبير.

لا يأكل هذه الأطعمة المختلفة (باستثناء ربّما الحبوب البرّية عندما يتمّ جمعها بكميات كبيرة) سوى النساء والأطفال. ومن العار أن يقتات رجل عليها. من بين قائمة الأغذية البرية، نجد اللّبان العربي والغذاء الوحيد الذي

يُمضغ بلا حياء من قبل الجميع. ولكن هل يُمكننا، فيما يتعلّق باللبان، أن نعتبره طعاما بحقّ؟ فاللبان لا يُعتبر طعاما في نظر التبو، وتقريبا مثله مثل سائر المنتجات البرّية التي اوردنا ذكرها للتو، والتي تُستهلك في الغالب بشكل فردي، خارج الوجبات الفعلية. وهكذا تُفلت هذه المنتجات الغذائية من دائرة القواعد التي تحكم المنادمة.

المواد الغذائية الأساسية

فيما عدا هذه الأطعمة البرّية، عادة ما يستهلك معظم الطعام في النجع (أو المخيم). وهنالك قواعد محدّدة تحكم كيفية المشاركة في تناول الطعام والمنادمة (أي مع من)، ولكن أيضا في وجود من يمكن استهلاك الأطعمة. وتختلف هذه القواعد تبعا لطبيعة الغذاء واتساقه. لذلك سنقدّم عرضا موجزا للأطعمة الرئيسية للتبو، قبل مناقشة طريقة استهلاكها.

قائمة المواد الغذائية ليست متنوعة بشكل كبير، حتى ولو لوحظت بعض الاختلافات من منطقة إلى أخرى. وتنقسم المواد الغذائية إلى ثلاث فئات رئيسية: أوّلا، الأطعمة الصلبة: وتعتمد في الغالب على الدّخن، المنمّق أحيانا باللحوم والصلصات المختلفة. ثانيا، اللبن الطازج أو الرائب، وبعض الثريد بالحليب الخام أو المطبوخ. وثالثا، الشاي: ويشرب حلوا جدا، ويمكن اعتباره غذاء بسبب كميّة الطاقة التي يُزوّد بها الجسم. لكن قواعد الآداب، كما سنرى، تضعه في قائمة منفصلة.

الأطعمة الصلبة

بحكم العادة، فإنّ الطبق الوحيد الدسم في اليوم هو ما يؤكل في المساء. وهو عبارة عن عجينة متماسكة من دقيق الدخن المطبوخ مع الماء (تُسمّى

"تبي" في لغة الدزا)، وتُسقى بصلصة أو في كثير من الأحيان بالحليب فقط. والصلصات المُعدّة من الطماطم المجففة والبصل أو الفلفل، أو حتى القليل من اللحم أحيانا، قد تكون تنويعا وخروجا عن المألوف. وفي موسم الأمطار، يتم تنويعها بالأعشاب البرية التي يتم جمعها في الأدغال.ثمّ يُسكب القليل من الزبدة المذابة إذا توفّرت على جميع الطبق.

يتم شراء الدخن من المزارعين أو من الأسواق. ويتمّ استهلاكه بشكل ثابت تقريبا من شهر سبتمبر إلى شهر يناير، ولكن قد يغيب عن المائدة بعد ذلك لمدّة شهرين أو ثلاثة، من شهر فبراير أو مارس، وأحيانا حتى مايو. إنّ مجرّد بُعد الأسواق قد يسبّب نقصا لأنّه عندما يكون كيس الدخن فارغا، يجب على الأسرة الانتظار عدّة أسابيع قبل أن يجلب أحد أقربائها كيسا جديدا.

في الصباح وعند الظهر، عادة ما يتمّ الاكتفاء ببساطة بحساء صاف، يسمّى "الماء الأبيض" (بي كاو)، أو باختصار "ماه" بي. وهو عبارة عن خليط من طحين الدخن الخام، ومصل اللبن والماء والسكّر أو الفلفل الحار. كما يتناول التبو أيضا الثريد أو العصائد التي تبدوا نوعا ما دسمة وتتكوّن أساسا من دقيق الدخن وتطبخ في الحليب أو مصل اللبن. وفي بعض الأحيان يصنع التبو الكعك. وخلافا لقبائل الفولاني، فإنّهم لا يصنعون أي نوع من الجبن.

في شمال تشاد، يُمكن للأطعمة المعدّة من القمح أن تحلّ محلّ الدخن: كما يأكلون أيضا الفطائر والمعجّنات الطازجة التي تصنعها ربّة البيت المنزل بنفسها، مع قليل من المعدّات المستوردة من ليبيا. تمثّل أصناف التمور الجافّة جزءا آخر مهمّا من النظام الغذائي. ويتمّ مضغها كما هي، وهي

تسبّب العديد من مشاكل تسوّس الأسنان. كما أنّ التمور تدخل في إعداد أطباق مختلفة، ويتمّ تقديمها في النجع أو تُستهلك أثناء السفر.

تُعتبر اللحوم ترفا يخصّص غالبا للاحتفالات الأسرية أو الدينية، أو عند تكريم ضيف مميّز. وعلى خلاف الأطعمة الأخرى، يجب تناول اللحوم بالتشارك. وهنالك حكاية تبوية بعنوان "الزعيم واللحم" تعبّر عن الحاجة للمشاركة في الطعام إذا كان لحمًا. (باروين، 1988). حيث تقول الحكاية أنّ أحد أمراء الحرب ارتكب خطيئة لمّا تناول وحده، من دون علم أصحابه، اللحم الذي وجدوه معًا. وتروي القصة التقلبات الخيالية التي حلّت بذلك الزعيم بعد هذا الانتهاك الخطير من طرفه لقواعد الحياة الاجتماعية.

الحليب والألبان

يُعتبر حليب النوق وحليب الأبقار، سواء الطازج أو الرائب، عنصرا أساسيا في غذاء التبو. وإذا كان حليب الأبقار وفير جدا، يُمخض بعض منه لإستخراج الزبدة. ويتمّ استخدامه لأغراض الطهي كما يُستخدم أيضا كمستحضرات للتجميل حيث أنّ الغُنج والدّلال الأنثوي غالبا ما يحظى بالأولوية على المخاوف الغذائية. وقد عبّر مجتمع دزا الذين اضطروا إلى التخلّي عن تربية الأبقار بسبب الجفاف عن الحنين للزبدة، لأنّه لا يُمكن استخراج الزبدة من حليب النوق. والزبدة علامة على الثروة وموسم الوفرة لأنّها لا يُمكن أن تتوفّر إلاّ في مواسم الأمطار، وإذا كان لدى أحد ما الكثير من أبقار، يمكنه الحصول على ما يكفي منها.

في أوقات معيّنة من السّنة، يُصبح الحليب هو الغذاء الوحيد. وهذا هو الحال بالنسبة لرعاة الإبل الذين يسوقون قطعانهم للرعي في الصحراء لعدّة

أشهر بعيدا عن أسرهم. لحليب الإبل والأبقار طعم وخصائص غذائية مختلفة، ولكن المهمّ بصفة خاصة أنّ دورات درّ الحليب متباينة بينها. والجمع بين تربية الإبل والأبقار بالنسبة للعائلات التي تقدِر على ذلك يمكن أن يُساعد في تفادي أشهر ندرة الحليب، حيث أنّ حليب الأبقار متوفّر بكثرة في موسم الأمطار عندما يكون العشب أخضر وطريّا وتولد العديد من العجول. ويظلّ الحليب غذاء أساسيا في الخريف والشتاء، ثم يُصبح تدريجيا نادرا، ولا يوجد مطلقا تقريبا في الموسم الحار (أبريل ومايو) حيث تعاني الأبقار من الحرارة وقلّة المراعي معًا. وفي كثير من الأحيان، يقلّ الدخن أيضا. ولكن لبن النوق التي أنجبت في فصل الشتاء يسمح بتفادي المجاعة حتى موسم الأمطار المقبل.

الشاي

مثل سائر السكان الآخرين في الصحراء، يستمتع التبو كثيرا بهذا الشراب. وبتركيبته المنبّهة والمزوّدة للطاقة، يساعد الشاي على نسيان التعب ويحلّ عُقدة الألسنة. ويتم إعداده مرارا كثيرة يوميا كلّما كان ذلك ممكنا. وهو يحتلّ المرتبة الأولى في قائمة المشتريات عند التسوّق. فليس غريبا أن يكون لدى التبوي كمية زائدة واحتياطية من الشاي والسكر، في حين قد تكون مؤونته من الدخن قد نفذت منذ وقت طويل.

تحتاج إلى حفنتين من السكر المسحوق لإعداد الشاي، واثنين من أباريق الشاي الصغيرة المطلية لعمليّة التحضير. يتمّ وضع الشاي والسكر على النار ليغليا معًا في إبريق الشاي الأوّل الذي يوضع على الموقد (الكانون)، ثمّ يُسكب المحتوى في الإبريق الثاني، ثمّ في الأوّل مجدّدا، وهكذا دواليك في حركة رشيقة تسمح بتهوئة الشاي وتكوين الزّبد (الكشكوشة). وتستغرق

هذه العمليّة وقتا طويلا، لأنّ الشاي يجب أن يُطهي في ثلاث مرّات متتالية، ولكن المتعة تكمن في هذا الانتظار والتوقّع وهذه اللحظات الاحتفالية التي تتميّز بتجاذب أطراف الحديث والحيويّة. والوضع المثالي هو أن يكون لديك كمية كافية من الشاي لبدء جولة جديدة بمجرّد انتهاء الجولة الأولى. وخلافا للطعام الذي يجب أن يؤكل دون الكثير من الكلام، فإنّ الشاي هو المشروب الاجتماعي بامتياز. وبتقديم الشاي نُكرم الضيف. وفي وقت احتساء الشاي يحلو الحديث، ويشعر الجميع بالارتياح. وقد أصبح الاستهلاك المنتظم للشاي اليوم شائعا في ربوع بلاد التبو، ولكن انتشاره أمر حديث نسبيّا. في عام 1920 كان شعب التدا لا زال لا يعرف هذا الشراب. أمّا بين تبو النيجر وحتى أوائل أربعينيات القرن الماضي (1940)، لم يكن من المقبول أن تشرب المرأة المتزوجة الشاي. (ش. لوكير، 1955، ص 154).

أنماط الاستهلاك الغذائي

على خلاف الشاي، يتمّ تناول وجبات الطعام في صمت واحترام. ولكن الطعام بدوره ليس مناسبة أقلّ للتبادل وبأشكال أخرى. وجرت العادة والقاعدة عندما يتمّ ذبح حيوان أن يتمّ تقاسم اللحم مع سكّان الخيام المجاورة. وبالمثل، فإنّ الرجل أو المرأة التي طلبت من جيرانها المساعدة في عمل جماعي يجب أن تقدّم لهم وجبة مشتركة. وبغضّ النظر عن هذه الظروف والمناسبات، فإنّ الطعام الذي تعدّه الزوجة يوميا نادرا ما يُستهلك من قبل أفراد الأسرة فقط، لأنّ الزيارات بين خيمة وأخرى كثيرة وقواعد المجاملة تتطلب دعوة هؤلاء الجيران، سواء أكانوا أقارب أم لا، إلى وجبة الطعام مثلهم مثل الضيوف العابرين، وهم كُثر. فالضيافة هي القاعدة الأساسية بين التبو.

تتّسم طريقة الأكل بتواضع كبير. فالرجال والنساء لا يأكلون معا. وإذا وصل شخص ما بشكل غير متوقع عند وضع طبق الطعام، تتمّ دعوته للمشاركة فيه، ولكن إذا رفض، فينبغي عليه أن يغادر حتى لا يُحرج الضيوف بوجوده. والمرأة التي تدخل عن طريق الخطأ خيمة فيها رجال يتناولون الطعام، يتعيّن عليها المغادرة على الفور، وكذلك الرجل، عليه العودة على عقبه فورا إذا دخل خيمة فيها نسوة يتناولن طعامهنّ. وعادة ما يختبئ الضيوف من الناس الذين لا يأكلون، وإذا بقي منهم نفرٌ في الغرفة: أداروا لهم ظهورهم. في المساء تعوّد التبو تفادى وضع الطعام في مكان كثير الإنارة: وعلى سبيل المثال كثيرا ما توضع منفضة أو غطاء قدر بشكل عمودي بين موقد النار والطبق، حتى يكون هذا الأخير في الظلام.

يجلس الجميع في صمت في حلقة حول وجبة الطعام المشتركة. وفي هدوء ودون عجلة، يقوم كلّ واحد باقتطاع لُقمة من المعجّنات بواسطة ثلاثة أصابع بيده اليمنى (الإبهام والسبابة والوسطى)، ويزدردها قبل أن يُعيد الكرّة. وإذا كان الطبق يتكوّن من الحساء فكلّ واحد يأخذ دوره في الأكل وحده بملعقة كبيرة (مغرفة). وسيكون من غير المناسب أن يكسر ضيف الصمت بتعليق لا علاقة له بوجبة الطعام. ومثل هذا التصرّف الأخرق، يجلب لصاحبه السخرية. وعندما يوشك الطعام على الانتهاء، يلعق كلّ واحد أصابعه، ويُترك لشخص واحد فقط مهمّة استكمال اللقمات الأخيرة. ثم يتمّ شطف اليدين والفم لإزالة أيّ بقايا علقت به من الطعام الذي تمّ استهلاكه. والانطباع الذي نستشفّه من مثل هذه المشاهد هي أنّ الأكل، عند التبو، هو عمل مُخجل تقريبا، يكاد يتمّ سرّا. ومن غير اللائق تناول الطعام بسرعة كبيرة، لأنّه لا يجب إعطاء الانطباع بالتهافت على

الطعام أو الانقضاض عليه، ومن غير اللائق أيضا أن يحوم المرء حول الطعام. وحول جلسة الشاي يحلو النقاش وتجاذب أطراف الحديث وحتى النوادر والمُلح.

هذه العلامات المتعددة على ضبط النفس، كما لاحظنا أعلاه، ليست حكرا على التبو، بل هي تكاد تميّز العالم الإسلامي بأسره، وخصوصا المجتمعات البدوية في الساحل والصحراء. وتعاليم المذهب المالكي، الذي يتبعه التبو، مبيّنة في كتاب بعنوان "الرسالة" يُفرد فصلا كاملا لآداب تناول الطعام (1975، ص. 309-311). والصورة المبيّنة أعلاه وفيّة للمبادئ التوجيهية التي يضعها، ولا سيّما فيما يتعلّق باستخدام اليد اليمنى، وعدم التهافت على الطعام والمضمضة بعد الأكل.

وبالعكس، فإنّ فكرة الحماقة أو "السنتي " تبدو غريبة على الإسلام. وهي شائعة في الأصل بين الطوارق (غاست، 1968 ص 110 و423؛ بيرنيس، 1972، ص 89؛ كاساجيس، 2000، ص 31-32). ولكنّها موجودة أيضا عند الهوسا، ولكن تبدو غير معروفة لدى العرب والفولاني. وفي الحقيقة يمتدّ هذا المفهوم إلى أبعد من فضاء التبو، ولكن يبقى من الضروري توضيح منطقة توسّعه وأصله.

قواعد المنادمة

إنّ الآداب لا تُملي فقط كيف يجب أن نأكل، بل هناك أيضا مجموعة كاملة من القواعد التي تحدّد مع من وفي حضرة من يجوز لكلّ شخص أن يتناول وجبة طعامه أو شُرب الشاي. ذلك أنّ هذه القواعد تختلف من واحد لآخر. وتلك القيود تتعدّل وفقا لمختلف المعايير التي تميّز العلاقة بين

شخصين: أعمارهم وجنسهم، وعلاقة القرابة أو المصاهرة بينهما، ووضعهم الاجتماعي أيضا. كما يعتمد ذلك أيضا على مكوّنات الطعام.

تبدو حالة العلاقة ببين الأزواج مثال جيّد على ذلك، فهما يشربان الشاي معًا، ومعظم الأوقات في حضور أحد الضيوف أو الجيران، ولكن بما أنّهما من جنسين مختلفين، فهما لا يأكلان معًا أبدا. فالزوج بإمكانه أن يأكل في وجود زوجته، ولكن ليس العكس. وفي بداية الزواج، لا تسمح الزوجة لنفسها حتى شُرب الماء في وجود زوجها. غير أنّ الوقت كفيل بتقليص هذه القيود، وبعد سنوات طويلة من التعايش، تُصبح المرأة العجوز لا تتحرّج أبدا من تناول الطعام والشراب في وجود زوجها.

وعموما فإنّ الرجال والنساء، صغارا وكبارا، يتناولون الطعام بشكل منفصل. وحتى الأب لا يأكل مع زوجته أو بناته. ولا يمكنه أن يشترك في طعامه إلاّ مع رجال بالغين، وابنه لا يأكل معه إلاّ إذا أصبح أيضا كهلا. ولكنّ الأم وابنتها على العكس من ذلك فتتناولان الطعام معًا، كما يجوز للابن الذي ما يزال صغيرًا أن يأكل مع والدته وأخته وعمّته أو ابنة عمّه. وحتّى الأخ وأخته لا يأكلان معًا إلاّ إذا كانا صغيرين دون سنّ البلوغ. ولا يُعفى من هذه القواعد إلاّ الأطفال الصغار جدّا، ويمكننا أن نرى أحيانا امرأة عجوزا تتقاسم وجبتها مع صبي صغير.

أمّا في غياب علاقة القرابة الوثيقة، فإنّ وجود تفاوت شديد في العمر أو الوضع الاجتماعي من شأنه أن يخلق مسافة وواجبا للاحترام عادة ما يكون مصدرا لقيود متعدّدة تعزّز بدورها الفوارق بين الجنسين. وهذه القيود قد تتعاظم إذا أضيفت إليها علاقة المصاهرة، وهذا يعني، في حالة العلاقة بين الصهر (زوج الابنة) أو الكنّة (زوجة الابن) وأصهار كلّ منهما. وبحكم

التعريف، فهم غرباء عن بعضهم البعض منذ البداية حيث أنّ زواج الأقارب مستبعد بين التبو. وهو حرام منذ وجود جدّ أو جدّة مشتركة بين (العروسين)، وينطبق هذا القيد حتى الجدّ أو الجيل الثامن بحسب الأسلوب المدني للحساب (باروين، 1985، ص 183). ولا تشمل القيود المفروضة على مثل هؤلاء الناس مجرّد الأكل أو الشرب، بل تؤثر على العديد من الجوانب الأخرى للحياة اليومية، كما سنرى أدناه. ولكن دعونا نبدأ أوّلا بوصف القاعدة المنظّمة لشرب الشاي.

إذا كان الرجال والنساء يتناولون الطعام بشكل منفصل، نجدهم على العكس من ذلك في كثير من الأحيان يشربون الشاي معًا، وفقا لقواعد محدّدة. في البداية، يجب التنويه إلى أنّ الشاي ليس من مشروبات الأطفال. وحتى الفتيات لا يُسمح لهم بشُرب الشاي قبل الزواج. والأولاد لا يبدؤون في شرب الشاي إلاّ عند سنّ المراهقة. ولكن بعد ذلك، يُصبح بإمكان الإبن شُرب الشاي مع والده، حتّى وإن كان لا يزال صغيرا جدّا لمشاركة والده الطعام. وعلاوة على ذلك، فإنّ الإبن هو عادة من يسهر على الخدمة: فهو من يعدّ الشاي إذا استقبل والده الضيوف. وأحيانا قد تعوّض الأمّ إبنها في هذا الدور.

يجوز للشاب شُرب الشاي مع والديه وأصدقائه ومع الشابات المتزوجات أو المطلقات. وشُرب الشاي خلال لعب الورق أو الاستماع إلى عزف العود، هو أيضا، كما هو الحال الآن، إحدى وسائل الترفيه المفضلة لدى الشباب (باروين، 2001، ص. 166-168). غير أنّه يمتنع عن شُرب الشاي برفقة الرجال وخاصة النساء اللواتي يكبرنه بكثير في حال لم يكونوا من أقاربه. وهذا الأمر لا يرتبط بحظر معيّن، وإنّما لمجرّد كونه من غير

اللائق والمناسب بشكل عام أن يقضّي الصغار والكبار وقتهم معًا، عندما لا تكون بينهم صلة قرابة.

أمّا الشابات اللواتي يتعوّدن شُرب الشاي بعد فترة طويلة من الأولاد، فلا يمكن لهنّ القيام بذلك إلاّ مع عدد أقلّ من الناس: فهنّ يشربن الشاي مع أقرانهن من نفس العمر، أو مع أقاربهنّ من سنّهنّ أو أكبر. ولكن فيما يتعلق بالأقارب الذكور من كبار السن (الأب والأعمام وغيرهم)، فإنّه لا يجوز لهنّ شُرب الشاي معهم إلاّ إذا أصبحن هنّ أيضا نساء ناضجات. أمّا بالنسبة للرجال والنساء الذين يكبرنهنّ سنّا، وإذا لم يكونوا أقارب، فإنّه لا ينبغي لهنّ قضاء الوقت معهم أو مشاركتهم شُرب الشاي.

—

*مقتطف من دراسة لكارتين باروين "التواضع وآداب المائدة والطعام عند التبو".

المصدر:

Catherine Baroin. Pudeur et nourriture : les mani`eres de table des Toubou. RAIMOND Christine, GARINE Eric et LANGLOIS Olivier. Ressources vivri`eres et choix alimentaires dans le bassin du lac Tchad, Paris : IRD et Prodig du CNRS, pp.377-395, 2005, Colloques et s´eminaires.

آلة العود عند التبو

كاترين باروين *

على الرغم من شكله المتواضع، يُعتبر العود عنصرا أساسيا من عناصر التعبير الفنّي عند شباب التبو، فعلى أنغامه المتميزة المليئة بالحنين، يتعرّف الجمهور على الكلام العذب للشاب وهو يتغنّى بجمال فتاة ما أو بعزّ ومجد نسبه. ومع ذلك، فقد حدثت تغيّرات كبيرة على صناعة العود، من حيث السياق الاجتماعي الذي يُعزف فيه عليه ومن حيث التراث الموسيقي، والذي تميّز بظاهرة التمدّن. وعليه فإنّ هذه الدراسة تسعى إلى التعرّف على مكانة العود في الموسيقى التبوية مقارنة بمكانته في المجتمعات الصحراوية الأخرى، وتركّز على هذه التطورات.

العود عند التبو هو أداة صغيرة ذات شكل متواضع لا يجلب الاهتمام. ومع ذلك، فإنّه الآلة الموسيقية المفضّلة لدى هؤلاء البدو الذين استوطنوا الصحراء الوسطى، وهو الآلة الموسيقية الأكثر استخداما من طرفهم، إلى حدّ أنّ العود بدا، في مجال الموسيقى، كما لو أنّه الشيء الوحيد الذي يرمز إلى هويتهم. فهل هذا يعني أنّه يحظى بنفس المكانة بالنسبة للمجتمعات الصحراوية الأخرى؟

السؤال يطرح نفسه خاصة وأنّنا أبرزنا في أماكن أخرى كيف أنّ التبو

---

* مقتطف من كتاب كاترين باروين، "آلة العود التبو" المصدر: Catherine BAROIN, « Le luth chez les Toubou », *Journal des africanistes*, 76-1 | 2006, 59-80.

يختلفون عن غيرهم من شعوب الصحراء، سواء من حيث التنظيم الأسري والاجتماعي والسياسي (باروين 1981-1982)، أو من حيث الدور الاقتصادي ووضع المرأة (باروين 1984. أ،ب). إلاّ أنّ هذه الأعمال، تركت الموسيقى جانبا تماما. ولذلك من الضروري النظر في آلة العود، وما إذا كانت هذه الفوارق لها ما يقابلها في مجال الموسيقي.

ويكتسي الموضوع أهميّة أكثر ممّا يبدو عليه، لأنّ الموسيقى تقع في صميم الثقافة، وهي "تدخل بثقل تام في المواضيع الرئيسية للأنثروبولوجيا". (لورتا- يعقوب و روفسينغ أولسن 2004: 9).

يحتلّ التبو، هؤلاء البدو السّمر الذين يسمّون أنفسهم تدا في الشمال ودزا في الجنوب، منطقة في شرق الطوارق تناهز ربع المنطقة الصحراوية، وتمتدّ من بحيرة تشاد إلى جنوب ليبيا، ومن شرق النيجر إلى مشارف السودان. تنقسم لغتهم (إلى لهجتين: (تداگا) و(دزاگا) وتنتمي إلى عائلة اللغات النيلية-الصحراوية، وهم معظم المتحدثين بها من بين الغربيين والشماليين.

ولذلك فمن وجهة نظر لغوية، يتميز التبو جوهريا عن باقي الشعوب الصحراوية الأخرى أو الصحراوية- الساحلية، والذين يتكلمون كلّهم لغات أفرو-آسيوية (مثل الطوارق، والبربر والعرب)، باستثناء الفولاني والذين ينتمون إلى مجموعة النيجر-الكونغو (هاينه ونورس 2004).

إذا كانت القيود التي يفرضها الوسط الطبيعي ونمط الحياة الرعوية تجعل من نمط الحياة لدى هذه الشعوب المختلفة متماثلا، فإنّ التبو يختلفون أيضا عن البدو الآخرين في طريقة تنظيمهم الأسري والاجتماعي

والسياسي. ويُمكن تفسير أصالتهم، إلى حدّ كبير، على أنّها نتيجة لقواعد الزواج الصارمة عندهم، والتي خلافا لغيرهم من المجتمعات الرعوية المجاورة، يحظرون فيها أي ارتباط بين الأقارب. وهذا يدفع إلى إيجاد اختلاط قوي في داخل عالم التبو، ويمنح علاقات التحالف وزنا أقوى ممّا هو عليه في أي مكان آخر، وتزيد متانته تبادلات هامّة لقطعان المواشي.

إنّ نوع التماسك الاجتماعي الذي ينجرّ عن ذلك، على أساس شبكات التحالف بين الأشخاص، ليس غريبا على نمط الحياة الشائع بشكل خاص بين التبو، بينما في حالات الشعوب الصحراوية الأخرى فإنّ الزواج بين الأقارب ينجرّ عنه منطق اجتماعي وسياسي من نوع مختلف (باروين 1985، 1993، 2003).

هل ينبغي لنا أن نتوقع العثور، في مجال الموسيقى، على اختلافات كبيرة أيضا؟ هذا هو السؤال الذي نسعى للإجابة عليه هنا، استكمال هذا المنهج المقارن من منظور تاريخي، تعاقبي لأنّ العود التبوي إذا كان مناسبا تماما لنمط الحياة الرعوية، فقد تكيّف أيضا مع التغيرات التي جلبتها الحياة العصرية، وخصوصا انتشار المواد والوسائل التقنية الجديدة، والتوسع الحضري المتزايد من جهة من حيث عدد السكان. ومثلها مثل الثقافة التي تعبّر عنها، فإنّ هذه الأداة تخضع لتغييرات سيتمّ رصدها هنا،ومن شأنها أن تغذي المقارنة بتغيرات طرأت على أشياء أخرى لدى مجتمعات صحراوية الأخرى، كما يدعونا هذا الملف. (...)

في البداية دعونا نذكّر بتعريف العود: فهو أداة ذات أوتار يُنقر عليها، على عكس الكمان (أو الربابة) التي تُفرك أوتارها بقوس. تتكون الأداتان من طارة (صندوق الصدى) ومقبض (عصا طويلة) تُشدّ على طولها الأوتار.

وعلاوة على ذلك، فإنّ نفس هيكل الآلة عند التبو يمكن أن يستخدم للعزف على العود، أو بصفة أقل شيوعا على الكمان. وآلة العود شائعة في جميع أنحاء العالم منذ العصور القديمة. إذ نجدها في بابل منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، وفي مصر القديمة وآسيا القديمة حيث أنها لا تزال موجودة حتى يومنا هذا. وفي العالم العربي، حيث يبدو أنّها جُلبت تحت التأثير الفارسي، تتمتّع آلة العود بمكانة متميزة "كسلطان الآلات الموسيقية ورمزا للموسيقى العربية المتجذّرة قديما وحديثا" (جارغي، 1971: 117). وهو أيضا الإسم العربي للعود (أو غصن من الشجرة) وهو أصل الكلمة الفرنسية، لأنّه انطلاقا من العالم العربي انتشر العود في جميع أنحاء أوروبا منذ القرن التاسع القرن، وأصبح الأداة المحلية المفضلة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، قبل أن يُصبح متروكا في القرن التالي. (تراشنفور، 1980: 174).

لكنّ العود العربي والأوروبي، ببيانه شكله وتسميته وموسيقاه يختلف كلّ الاختلاف عن العود التبوي. وهنالك تسميتان لهذا الأخير: "كليلي" أو "سيغيني"، ولا تمتّ بأي علاقة لغويّة بالعود العربي أو الفرنسي، كما أنّ العود التبوي يختلف أيضا عن غيره من حيث الشكل والمظهر. وهو أداة عادية جدّا، تُصنع طارتها (أو صندوق الصدى) في الوقت الحاضر من وعاء مطلي بالميناء ويبلغ قطره ثلاثين سنتيمترا تقريبا، يثبّت عليها مقبض خشبي رقيق عليه وترين، أو ثلاثة أوتار أحيانا. وبشكله البدائي، وبساطته، وخلوّه من أي زخرف وانعدام قيمته السوقية، فإنّ العود التبوي لا يُشبه كثيرا آلات العود التي يعزف عليها الشعراء الغنائيون المغاربة (غيينارد 1975). ومع ذلك، فهو يُصدر موسيقى شجيّة وأصيلة لا ينمّ عنها أبدا مظهره المتواضع.

ومنذ الثواني الأولى من الاستماع إلى العزف عليه، يمكن التعرّف على الأنغام المميزة للعود التبوي دون أي مجال للخطأ، بما في ذلك، المقطوعات الموسيقية الحديثة. وذلك لأنّ نغماته تتطوّر، مثل الموسيقى الطارقية (نسبة إلى الطوارق) أو المغاربية، وتتأثر بعوامل المجاورة، ولا سيّما التمدّن.

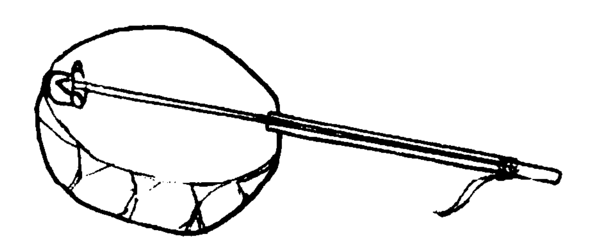
سوف نتناول العود التبوي من ثلاثة زوايا: توصيف فنّي يفرض نفسه أوّلا، ثمّ، وضع الإطار الاجتماعي لهذه الموسيقى مقارنة بالأنواع الموسيقية الأخرى لهؤلاء البدو، وثالثا، وأخيرا استحضار المخزون (الموسيقي). ومعايير المقارنة من شأنها أن تحدّد في كلّ نقطة أصالة الموسيقى التبوية، مقارنة بسائر الأقوام الأخرى في الصحراء، قبل الإشارة إلى آخر التطورات. لذلك سنقوم أوّلا بدراسة الخصائص التقنية للعود التبوي.

كيفية صنع العود ومكوّناته

يسمّى "كيليلي" عند تبو التدا و"سيغيني" عند تبو الدزا. وعندما نُضيف له القوس يُصبح نوعا من الكمان (أو الربابة) التي يُطلق عليها تدا تيبستي اسم "كيكي". أمّا تبو الدزا فعموما لا يعزفون على آلة الربابة، باستثناء عشيرة "الكريدا" وهي عبارة عن مجموعة لغوية متفرعة عن الدزا وهي أكثر تماسكا وتجانسا من غيرها من قبائل وعشائر التبو، وقد استوطنوا في منطقة بحر الغزال في شمال-شرق بحيرة تشاد (شابيل، 1957: 144). وهؤلاء "الكريدا" يُطلقون على العود اسم "تولو"، في حين أنّهم يُطلقون اسم "سيغيني" على آلة الربابة (أو الكمان).

على الرغم من هذه الاختلافات في التسمية، تحتفظ الآلة بشكل عام بنفس الشكل والهيئة في كامل العالم التبوي تقريبا. أمّا آلة العود لدى تدا

تيبستي فقد لاحظها (تشارلز لو كير) في 1933-1935. وقد وصفها هذا الكاتب بشكل وجيز وقدّم رسم كروكيا لها (1950: 134): وتتكوّن من طارة (صندوق صدى) يتألف من طبق خشبي، أو قرعة أو وعاء مغطّى بقطعة من جلد الجمل، ومزوّدة بعصا أو مقبض من ضلع النخيل لتدعم وترين اثنين من سبيب الخيل يثبّتان في طرف المقبض بواسطة شرائط. وقد أكملت (مونيك برانديلي)، التي بحثت في تيبستي بعد ثلاثين عاما من ذلك التاريخ، بقدر كبير من التفصيل وصف الآلة وطريقة تصنيعها (1974 الفصل: 2). ومثلها مثل (لو كير)، فقد ركّزت هي على تنوّع المواد التي يُصنع منها صندوق الصدى، والذي لا يزيد قطره عادة عن خمسة وعشرين سنتيمترا. وقد كان في السابق يُصنع من وعاء من الخوص، ثمّ استُبدل بوعاء خشبي، أو واحدة من نبات القرع أو وعاء معدني.



صورة لآلة العود التبوية

يُغطّى صندوق الصدى بجلد جمل أو ماعز أو ظبي أو بقرة بدل من ذلك، ويُثقب الجلد في محيطه، حتى يتمّ شدّه بخيط من الجلد على الجزء الخلفي من صندوق الصدى. ويبقى الجلد غير مدبوغ حتى يظلّ قاسيا، وهو ما يضمنه له المناخ الجاف. لهذا السبب لا يُمكن العزف على هذا العود في فرنسا، حيث تُسهم رطوبة الهواء في ارتخاء الجلد وتُضعف الصدى الذي

يصدر عن الصدوق. يتم تشكيل المقبض وهو بطول بين خمسين وستّين سنتيمترا -وفقا لـ(برانديلي)- من عود عرجون التمر، أو في حالة عدم وجود ذلك من قطعة من جذور شجر السنط. ويتمّ تثبيته على جلد الآلة وليس على الطارة نفسها بواسطة ثقبين في الجلد عند نقطتين في قطر المساحة المشدودة وفقا لرسم الكروكي المبيّن أعلاه.

توضح (برانديلي) وصفها لتركيبة العود بصور واضحة. وطبيعة الأوتار، وفقا لها، متغيّرة كما هي طبيعة الجلد: وتر من جلد الماعز، أو الغزال أو الإبل، ويُمكن الاستعاضة عنه أحيانا بخيط النايلون. وبطولهما غير المتساوي، يتم ضبط الوترين الأساسيين على نغمتين متباينتين، في حين يكون الوتر الثالث ثابتا غير قابل للنقل. وبما أنّه أقصر بكثير من الوترين الأخيرين، فإنّ الوتر الثالث لا يُضاف إلاّ إلى بعض القطع ويُصدر صوتا حادّا لا يتغيّر بعزف الفنان.

أمّا عند تبو النيجر، فإنّ شكل الآلة شبيه جدّا بالصورة التي أوردتها باروين (انظر الصورة عند باروين، 1988: 113). عادة ما تكون الطارة أو صندوق الصدى عبارة عن وعاء معدني مطلي بالمينا، ويكون الوتران –أو الأوتار الثلاثة أحيانا- مصنوعين من سبيب الخيل أو خيط النايلون. إلاّ أنّه مع انتشار أجهزة التسجيل (أشرطة التسجيل أو الكاسيت) في جميع أنحاء بلاد التبو ابتداء من الثمانينات (1970-1980)، فقد تمّ استبدال سبيب الخيل وخيط النايلون الآن بالأشرطة المغناطيسية: حيث يتمّ ظفرها لصناعة أوتار العود التي تنتج أنغاما يُقال أنّها أفضل بكثير.

ممّا يلفت النظر هو اللدونة القصوى لهذه الآلة، الذي تتكيّف طريقة تصنيعها بشكل كبير مع المواد المتاحة. لذلك فليس من المستغرب التخلّي

عن الأواني الخشبية، التي اختفت منذ فترة طويلة من مخزون الأدوات المنزلية المستعملة لدى التبو لصالح الأواني المعدنية المطلية بالمينا والتي تباع في الأسواق. أمّا بالنسبة لاستخدام الأشرطة المغناطيسية لصنع أوتار العود، فتلك علامة على التكيف مع العصر الحديث ولا تؤدّي، في واقع الأمر، إلى كثير من التغيير في المخزون، وهذه نقطة سنعود إليها ثانية.

السياق الاجتماعي للعزف على العود

تخضع ممارسة الموسيقى عند التبو إلى قواعد صارمة تجمع بين عدّة معايير هي: طبيعة الموسيقى (غناء أو عزف على آلة)، هوية الموسيقي (الجنس والعمر والحالة الاجتماعية)، إلى جانب هوية الجمهور (عام أو خاص). وبالتالي فإنّ سياق العزف على العود يندرج في جُملة القواعد هذه والتي من المهم عرضها.

تخصّص أوّل هذه القواعد العزف على الآلات الموسيقية للرجال. فالنساء –من حيث المبدأ- لا يعزفن أبدا على العود ولا على أي آلة موسيقية أخرى. والنوع الموسيقي الوحيد المقبول بالنسبة لهنّ هو الغناء، المصحوب بالتصفيق أو بدون تصفيق، وخصوصا خلال الاحتفالات أو الرقصات العامة. أمّا بالنسبة للرجل، على العكس من ذلك، فمن غير اللائق أن يغنّي في الأماكن العامة، ما لم يكن حدّادا، وهي فئة اجتماعية مزواجة بين التبو. والجمع بين هذه القواعد يحدّد خمسة أنواع من الموسيقى:

- غناء الحداد أمام الجمهور ويرافقه طبل من نوع محدّد؛
- غناء النسوة، ويمكن أن يكون أمام الجمهور أو في إطار خاص؛

- غناء الرجل بشكل منفرد عندما يكون مسافرا (بعيدا عن الجمهور)؛
- ضرب الطبل (للذكور وأمام الجمهور)؛
- العزف على العود (للذكور وفي مكان خاص أو شبه خاص)؛

زمن أجل تحديد أفضل لخصوصية سياق العزف على العود، علينا أوّلا تقديم وصف موجز للأنواع الموسيقية الأخرى

موسيقى الحدّادين

تحتلّ موسيقى الحدادين مكانة خاصة بين التبو، سواء من حيث الأسلوب الموسيقي أو من حيث القواعد الاجتماعية لعزفها وإنتاجها. فهؤلاء الحدادون الحرفيون هم مزواجون (باروين، 1991)، وعدد قليل منهم فقط متخصص في الموسيقى. ولكن لا يحتكر هؤلاء الشعراء الغنائيون جميع أنواع الموسيقى، كما هو الحال بين المغاربة (غيينارد، 1975). ففي المجتمع التبوي، الحدادون هم الرجال الوحيدون الذين لا يجدون حرجا في الغناء في الأماكن العامة. كما أنهم المطربون الوحيدون الذين ترافق غناءهم آلة موسيقية مخصصة لهم. وهي عبارة عن طبل مستطيل بطول خمسين سنتيمترا، واسمه "كيدي". يضعه العازف أمامه في مستوى خصره، وذلك باستخدام حزام يمرّ على كتفه. (برانديلي 1974، الفصل 5).

بين التبو، فقط الحدادون **بإمكانهم** أن يُصبحوا مغنّين (ونعني هنا احتراف الغناء)، والقبول باستلام مقابل على هذا الأساس، ويظهر المغنّون بناء على الطلب خلال المناسبات الهامّة، مثل الزفاف أو الحفلات. بصوت عال، بين الصياح والغناء، يقوم الحداد بالثناء على مستضيفيه ومدحهم على إيقاع الطبل في حين يقوم الشبّان والفتيات بالاصطفاف للرقص في دائرة حوله. ولإظهار الإعجاب يقوم بعض المتفرجين بالتناوب وفي حركة

واضحة تلفت الانتباه، بنثر الأوراق النقدية حوله فتتناثر مرفرفة فوق رأسه، أو يأتون للصقها على جبينه أو دسّها في جنب عمامته قبل أن يدسّها هوّ في جيبه. ويجوز للحداد المغنّي الغناء في أيّ عمر، في حين أنّ الأنواع الموسيقية الأخرى تظل حكرا على الشباب، ولا يستجيب أي منها إلى أي قانون اجتماعي معيّن.

أغاني المرأة

حتى في غياب الحداد ترقص الفتيات والنسوة طواعية أمام الجمهور، في حفلات الزفاف أو أي من الاحتفالات الأخرى، فيصطففن في شكل دائري، ويغنّين وهنّ يصفّقن: في حين تقول إحداهن بشكل منفرد عبارة موسيقية، فتردّ عليها الأخريات في جوقة. ويُعتبر هذا شكل من التعبير العام، ويمكن لأي شخص أن يحضر للفرجة.

"أغاني السرج"

على عكس النساء، فإنّ رجال التبو – وما لم يكونوا حدادين – لا يغنّون أبدا أمام العموم، إذ أنّ هذا الأمر مدعاة للخجل. ولا يسمحون لأنفسهم بالغناء إلاّ إذا كانوا بعيدا في الأحراش على ظهور الإبل، ولوحدهم أو مع واحد أو اثنين من الرفاق من سنّهم. والحرش، اسم مذكّر لفضاء يتناسب في الواقع مع هذا النوع من التعبير، خلافا للمخيّم والذي يحمل دلالة المؤنث بدلا من ذلك، فالخيام فضاء ملك للنساء. و"أغاني السرج" هذه، -وتسمّى (دوبانا تركيا بلغة التداگا، ودونا تركيا بلغة الدزاگا" والتي نشرت (برامديلي) أمثلة جميلة منها (1990)- لا ترافقها أيّ آلة. فهي نتاج للحنين إلى الماضي وتعبير بالصور الشعرية عن معاناة السفر، وشظف العيش والرغبة وجمال الحبيبة وحسبها ونسبها.

الباب الرابع

شخصيات تاريخية

ومن التبو أبطال أشاوس...

(مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا. (سورة الأحزاب، الآية: 23)

ما من شكّ في أنّ القارئ والباحث قد يلاحظ بسهولة بالغة كيف اتسم التاريخ الجهادي لقبائل التبو في ليبيا بالكثير من الغموض؛ ويعود السّبب في ذلك إلى شحّ المعلومات نتيجة قلة التوثيق وندرة المادّة والبحوث في هذا المجال، ومن بينها جهاد القبائل ضد قوى الاحتلال والاستعمار في مختلف ربوع البلاد. وقد ظلّ بحث ودراسة تاريخ جهاد الليبيين خاضعاً للأهواء التي أبت أن تُبرز تلك الحقائق الدامغة وتلك البطولات والملاحم الشعبية في حبّ الوطن والذود عنه، وخاصة تلك التي ظهرت في منطقة الصحراء الكبرى وكانت مثالا على توحيد الصفوف بين مختلف مناطق ليبيا وحتى عبر الحدود وخاصّة في أقاليم تبستي، انيدي، بوركو، في تشاد. وكوار، براو، في النيجر. وإقليم فزان، زلاء، وتازر، وإقليم برقة في ليبيا.

ففي تشاد شهدت القوات الفرنسية مقاومة عنيفة بعد احتلالها لجنوب تشاد وتوجّهها نحو الشمال عبر مناطق التبو. وكان أول من تصدّى لهم هو السلطان شهاي بوغر مي، سلطان قبائل التبو بشهاد الرحالة والمستكشفين الذين جابوا الصحراء الكبرى والمجاهد عبدالقادر توركي مي الذي قاد حركة الجهاد ضد الفرنسيس لأعوام عديدة في

تبستي. ولا ننسى المجاهد قجة عبدالله أحد قادة المقاومة التبوية في تبستي بتشاد وفي برقة بليبيا حيث انظم إلى المجاهدين بالجبل الأخضر وقادهم إلى انتصارات محققة ضد الطليان. وقد كتب عن حنكته ودهائه جنرالات فرنسا وإيطاليا. وفي النيجر لا ننسى دور المجاهد وردقو عثمان مي الذي قتل وهو يواجه سرية فرنسية كاملة بعدتها وعتادها، والمجاهد موليا دازي مي، وغيرهم من المجاهدين الأفذاذ الذين ما انفكت الصحراء الكبرى تذكر مآثرهم وأفعالهم في صدّ الأعداء. وفي ليبيا حيث معقل المجاهدين وفي "زلّاء" فزان ضد الطليان بقيادة المجاهد المينا صالح التباوي الذي استشهد في قلعة القاهرة بسببها بعد أن قادة الجهاد ليس في فزان فحسب بل وفي الجبل الغربي وطرابلس. وقد كان من رفاق المجاهد عبدالنبي بلخير وغيرهم من المجاهدين في إقليم طرابلس. ولا يفوتنا المجاهد والدليل الفذ عبد الله ملكني التباوي الذي قاد حركة الجهاد في تازر (الكفرة). فقد التحق ملكني بحركة الجهاد في مناطق الجبل الأخضر مبكرا وكان له الدور الأبرز في إجلاء العائلات المهجرة في تازر (الكفرة) بعد تشتت المجاهدين عقب المعركة التي خاضوها للدفاع عن الكفرة. فقد قام بإجلائهم إلى برّ الأمان في محافظة "كورو" الواقعة في إقليم تبستي بتشاد حيث رحب بهم التبو هناك وأكرموا ضيافتهم.

لقد قدّم التبو دماء طاهرة زكيّة ومثالا حيّا على حب هذا الوطن والذود عنه، ولا زالت دماؤهم تروي هذه الأرض بدمائهم الطاهرة من أجل حياة حرّة كريمة لهم ولأحفادهم. والجدير بالذكر هنا هو دور التبو البارز في نشر الإسلام في دول إفريقية عدية من أهمّها تشاد والنيجر. فقد دخل

الإسلام إلى تشاد لأول مرة عن طريق تجار التبو القادمين من دول الساحل. وكانوا من رجالات مملكة كانم وهي أول إمبرطورية إسلامية في إفريقيا امتدت حدودها إلى عدة دول إفريقية، ووصلت حدودها الشمالية إلى " زلّاء" فزان بليبيا. والتبو هم من أوئل من دعم الحركة السنوسية في نشر دعوتها في إفريقيا والصحراء الكبرى. بل إنهم أحد أساسات تلك الحركة التي دوّخت القوى الاستعمارية في إفريقيا. فقد لعب التبو دورًا محوريا في نشر دعوة الحركة السنوسية وحماية المبعوثين من القادمين من جغبوب إلى كل ربوع إفريقيا.

تكريما لأبطال التبو التاريخيين وإبرازا لدورهم الكبير - الفردي أو الجماعي - إلى جانب أبطال ليبيا من غير التبو، سنتناول في هذا الباب بعضا من تلك الشخصيات التاريخية التبوية الذين حفلت حياتهم بمآثر عديدة وإنجازات لا تُحصى في صدّ الاحتلال والذود عن الأرض والعرض.

المجاهد عبد القادر توركي التباوي *

(1869-؟)



من بين المجاهدين الذين برزوا على ساحة المقاومة في تاريخ التبو، نذكر المجاهد عبد القادر توركي مي الذي ولد عام 1869 في محافظة (وري) وتقع في أقصى الجنوب الليبي على الحدود مع تشاد، وفي الحقيقة فإنّ جزءا منها يقع في تشاد.

نشأ عبد القادر وترعرع في أسرة بدوية تميّزت حياتها بالترحال. كان والده الشيخ تُركي أحد أعيان محافظة (وري). وكان الشيخ تركي ميسور الحال وتمكّن من إرسال أبنائه الخمسة ومن بينهم عبد القادر إلى الزاوية

* بتصرّف عن مقال لفايز قلماي (شبكة المعلومات الدولية)

السنوسية في (جغبوب) والتي احتضنت العديد من رموز الجهاد وأقطاب الفقه آنذاك... وهناك أمضى عبد القادر مُعظم أيّام شبابه حيث ظل ينهل من كتاب الله العزيز ويداوم القراءة والحفظ والتلاوة والدراسة حتّى تكوّن له زاد علمي كبير قبل أن يعود إلى مسقط رأسه في أواخر القرن التاسع عشر عندما كانت حروب التنصير في أوجها، حيث بدأت الحملات الفرنسية تجتاح شمال تشاد سنة 1899 بعد سقوط إمبراطورية كانم الإسلامية.

في عام 1894 توجّه الشيخ عبد القادر إلى منطقة عين (كلاكا) التي كانت بالأساس منارة لتحفيظ القرآن الكريم وتلقين مبادئ الإسلام لأهالي المناطق القريبة والبعيدة على يد زمرة من الشيوخ والعلماء الأفذاذ الذين سطعت أنوار علومهم وانتشرت. ثم سرعان ما تعاظمت فيما بعد شوكتها واتسع نفوذها ومدها الأمر الذي أقلق الفرنسيين الذين كانوا يبسطون نفوذهم على القارة السمراء والصحراء الكبرى ويحاربون الزوايا الدينية هناك ويهاجمونها ويغرون الأهالي بالانضواء تحت الحماية الفرنسية.

ولم يكن هناك من بد أمام الزاوية سوى الدفاع عن نفسها ضد الحملات الفرنسية المنظمة، فتشكلت الأدوار الحربية وتوزّعت وكان المجاهد عبد القادر على رأس المجاهدين الذين تصدُّوا للغزو الاستعماري التنصيري لتشاد، وخاض عدة معارك تكلّلت بالنجاح رغم سقوط العشرات من رفاقه المجاهدين في ساحة الوغى... إذ سقط في معركة (زاوية بئر علالي) التي جرت يوم 1902/12/5 فرنجي قرابة مائة شهيد، وظل عبد القادر ورفاقه يحاربون. وكانت قوات المجاهدين تحرز تقدّما يوم بعد يوم نتيجة للهزائم المتلاحقة التي منيت بها القوات الفرنسية على أيدي المجاهدين في مختلف المناطق. وقد كلفت الحكومة

الفرنسية الجنرال لارغو (Largeau) سنة 1910 فرنجي إدارة العمليات العسكرية في شمال تشاد، فتمّ احتلال مدينة (فايا) بعد معركة أم العظام التي استبسل فيها المجاهدون التبو وخسروا أهمّ قادتهم. واستشهد العشرات، إلاّ أنّ الغلبة كانت للقوة الإمبريالية التي امتلكت الأسلحة الفتاكة. فتمّ احتلال منطقة (فايا) وجعلها منطقة عسكرية ونقطة انطلاق لاحتلال بقيّة الأقاليم الشمالية). وسميت منطقة (فايا) فيما بعد باسم (فايا لارغو). وللقضاء على حركة المقاومة واستئصال شئفتها، زحفت القوات الفرنسية بعد احتلال (فايا) نحو الشمال التشادي إلاّ أنّ القوات الفرنسية فشلت في احتلال محافظة (وري) وما حولها. فبعد تشتت قوات المجاهدين في جهات مختلفة في شرق الصحراء وغربها ونقص السلاح والذخيرة، اتبع المجاهد عبد القادر طريقة ذكية وهي نظام الغارات السريعة والخاطفة على المعسكرات الفرنسية. وغالبا ما تكون الخسائر ضئيلة والغنائم وفيرة والضربات قاصمة. وتركزت العمليات العسكرية التي كان يقوم بها المجاهدون على الحرب الخاطفة والهجمات الليلية لإحداث نوع من الإرباك بين صفوف الفرنسيين، معتمدين في ذلك على الجمال كوسيلة نقل لا يمكن للفرنسيين محاصرتها. وكانت حرب العصابات التي دأب المجاهدون التبو بقيادة عبد القادر توركي على شنّها قد جعلت القوات الفرنسية تعيش هاجس الخوف والرعب في كل لحظة تحسبا لكر المجاهدين عليهم... وهو الأمر الذي جعل الفرنسيين يفشلون حتى في حماية من انضوى تحت رايتهم واستظل بظلهم.

والمدهش أنّ كلّ هذا النشاط حصل في ظلّ نقص للسلاح والذخيرة والتموين وبدون دعم من أحد. فقد قوبل طلب المجاهدين بالإمدادات والذخيرة بالرفض من قبل الحكومة السنوسية أو القائمقام العثماني في

مدينة مُرزق. وكانا يماطلان ويتحججان بحجج واهية الأمر الذي جعل قوات المجاهدين تواجه بمفردها الجحافل الفرنسية الزاحفة نحو الشمال. وبعد أن فشلت القوات الفرنسية من احتلال كامل الشمال التشادي غير الجنرال (لارغو) من تكتيكاته العسكرية وسياسته حيث لجأ إلى المفاوضات الغير المباشرة مع زعيم المقاومة القائد عبد القادر توركي وعرض عليه مُغريات مادية كثيرة إلاّ أنّ المجاهد ظلّ ثابتا على عهده وموقفه وبات قبول وقف إطلاق النار متوقف على رحيل القوات الفرنسية. وبعد عام واحد تم الاتفاق مع المجاهد عبد القادر توركي على انسحاب القوات الفرنسية من الأجزاء المحتلّة من محافظتي (وري) و (كورو) وما جاورهما، والعمل على إعادة المهجّرين، ووقف النشاط التبشيري بشرط توقّف العمليات التي يقوم بها المجاهدون ضدّ القوات الفرنسية. وظل المجاهد عبد القادر توركي بعد ذالك يدير شؤون محافظة (وري) ويسهر على حل مشاكل سكّانها من قبائل التبو حيث كان فيهم إمامًا عادلا ومفتيًا دينيا وفقيها ومُرشدا إلى أن وافته المنيّة سنة 1963 عن عمر يناهز أربع وتسعين عاما تارك لنا سيرة عطرة وتاريخا حافلا. وتمّ تقسيم منطقة (وري) إلى جزأين بعد أن تمّ الانتهاء من ترسيم الحدود بين ليبيا وتشاد حيث دخل جزء منها الحدود الليبية وأصبح مواطنوه ليبيون بنص دستور الليبي الصادر سنة 1951 حيث شملهم الإحصاء السكاني الذي قامت به المملكة الليبية سنة 1954، وظلّ الجزء الآخر تابع لدولة تشاد وأصبح مواطنوه تشادين وبذالك أصبحت أراضي (وري) خطًا فاصلا بين دولتين الأمر الذي حدا بأغلبية السكان إلى الهجرة كلاً نحو بلده، ومازالت آثار منطقة (وري) موجودة وظاهرة للعيان بها معالم سياحية وآثار تاريخية شاهدة على تاريخ نضالي كبير سطّر صفحاته مجاهدون بواسل من أمثال الشيخ عبد القادر بدمائهم الزكيّة.

المجاهد محمّد ملكني التباوي

(1981-1892)

جهاده ضدّ المستعمر الإيطالي
ودوره كدليل للرحالة والمستكشفين



المجاهد محمّد ملكني

حياته ونشأته:

المجاهد محمّد ملكني من الأبطال القلائل الذي جادت بهم قبيلة التبو فساهموا في صُنع مجدها وتسطير تاريخها، وقد وُلد المجاهد محمد ملكني في واحة تازر (الكفرة حاليّا) عام 1892 في أسرة تبوية بدوية عُرفت بكفاحها ونضالها. وترعرع بين أقرانه من قبيلته والقبائل الأخرى القاطنة في الواحة.

وقد اشتهر بلباقته في الحديث وحسن سيرته وسلوكه وحكمته التي أثبتها في مواقف عديدة. وتعود هذه الخصال والشمائل الحميدة لما تميّز به من رصانة وثقة في النفس، وقد دأب على المحافظة على هذه الخصال في كلّ أطوار حياته.

وقد كان والده علي أزامي رحمه الله من قبيلة (ماضنا) مجاهدا شجاعا قاوم الاستعمار الفرنسي إبّان احتلال تشاد، وقد شارك في معارك طاحنة من أهمّها معركة زاوية بئر العلالي ومعركة عين كلاكة ومعركة أمّ العظام، وكان معه من المجاهدين على سبيل الذكر المجاهد الشهير أحمد الشريف وعبد القادر آدم التبوي وعبدالله الطوير.

أمّا والدته ألوة آدم اسماي، فهي من قبيلة هوكتيا، وكانت زوجته الأولى تُدعي هيادة أمّا زوجته الثانية فاسمها حواء،.ومن إخوته أرامي، والد الشهيد البطل حسن الذي استُشهد في معركة قمّينس ضدّ الاستعمار الإيطالي عام 1924، وقد كان من بين الذين تمّ تكريم أهلهم من قبل مركز الجهاد الليبي (مركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، حاليا).

ومن بين رفاقه في النضال وأصدقائه نذكُر المجاهد الكبير قجة عبد الله التشادي قائد معركة بير بلال، الذي ينتمي لقبيلة (البديات) وهي من تبو الدزه، وكان برفقته نحو خمسين مجاهداً من أفراد تبو تشاد وزغاوة، وقد أواه مِلْكِني هو ورفاقه في منزله بواحة تازر (الكفرة) عند قدومه إلى الواحة. ويُذكر أنّ من ضمن الحاضرين كان الشيخ أردية أوشا، ولودة يسكي، وأزقي، وكان قجة عبدا لله يمازح ملكني باحثاً عن حقيقة كنية محمّد ملكني باللغة التبوية، وكانت إجابة محمّد أنّ اللقب للدلالة على اللّون وصغر السن، ولكن هذه الإجابة لم تكن كافية لديه، فكان مُصرًا على تفسيره باللغة

العربية تارة بملك النيل، وتارة بذي الحكمة والعقل الذي لا تهزّه النوازل والنوائب، والذي يُعَدّ بيته مقصدا لكلّ زائر.

التقى محمّد ملكني أيضاً بالمجاهد قجة عبدالله في منطقة قمّينس خلال اجتماع عُقد في تلك المنطقة. ومن رفاقه المجاهدين من أبناء قبيلته أيضا نذكر المجاهد هرنجي دلمي والمجاهد سلمي شدّة والمجاهد صالح اردموني وطاهر إبراهيم، وكانت تربطه علاقات حميمة بقادة الجهاد في مناطق برقة كالجبل الأخضر وبرقة الوسطى والغربية، ومنهم المجاهد الكبير عمر المختار المنفي وإدريس السنوسي الذي تمّ تنصيبه أميراً على الأقاليم سنة 1922 في المؤتمر الذي عُقد بسرت. وكان صالح الأطيوش المغربي رئيساً لوفد المنطقة الشرقية آنذاك. وفي أواخر ديسمبر 1922 ذهب السيد إدريس إلى مصر وعيّن أخاه محمد الرضا السنوسي خلفاً له والشيخ المجاهد عمر المختار قائداً لمنطقة الجبل الأخضر، وعيّن صالح الأطيوش قائداً وزعيماً لمنطقة برقة الغربية، والمجاهد قجة عبدالله قائداً لمنطقة برقة الوسطى. وقد أرسل المجاهد محمد ملكني رسالة شكر للمجاهد صالح الأطيوش وبقية المجاهدين أعرب فيها عن شكره للدور الذي قاموا به من أجل توحيد صفوف المجاهدين واعتذاره عن عدم حضوره مؤتمر سرت.

كما كانت تربطه كذلك علاقة متميزة بأفراد قبيلة المغاربة ومنهم صالح الكيلاني الأطيوش، وقبيلة المجابرة ومنهم الشاعر بوكارة المجبري، وأيضاً بالعائلة السنوسية في (تازر) وخاصة مع الوكيل عابد السنوسي ابن عم إدريس السنوسي وكذلك السيد الزروالي، وكذلك مع المجاهد بومطاري الزوي الذي جمعه مع محمّد ملكني حبّ الوطن والذود عنه والجهاد من أجله. وتُشير المصادر إلىّ أنّ الصراع بين قبيلتي الزوية وقبائل التبو ضاربًا في

القدم ويعود على عام 1887 إبّان حكم العثمانيين، إلاّ أنّ جبهة المقاومة ضدّ الطليان جمعتهم ووحّدت صفوفهم. هذا وقد حصل المجاهد محمّد ملكني على أعلى الأوسمة وأرفعها من المملكة وذلك عرفانا له بشجاعته وإخلاصه وبذله الغالي والنفيس من أجل الوطن، كما حصل على شهادة تقدير من مركز الجهاد الليبي.

دوره في الجهاد

ما أن سيطرت القوات الإيطالية على مناطق الوسط والجنوب والغرب واستتبّ لها الأمن إضافة إلى تواجدهم في مناطق بنغازي وما حولها، حتى شرعوا في الإعداد العسكري لاحتلال منطقة الكفرة العصيّة. وقد كانت السيطرة على هذه الواحات تمثل أهميّة خاصة من حيث الإستراتجية الحربية الاستعمارية الايطالية حينذاك، خاصّة بعد أن تحوّلت إلى معقل لمن تبقّى من المجاهدين عقب احتلال منطقة الخليج والمناطق الصحراوية المجاورة. هذا وتعتبر واحة الكفرة مركزاً اقتصادياً نابضا وحيوّيا حيث كانت تمرّ بها القوافل الداعمة للمجاهدين في مناطق الجبل الأخضر، هذا إضافة إلى التخطيط الحربي الإيطالي ي الذي أكدّ عليه الوالي (بادوليو) والذي يقضي بملاحقة كافة جيوب المقاومة للقضاء عليها وبسط النفوذ القوات الإيطالية على كافّة ربوع البلاد.

التحق المجاهد ملكني بحركة الجهاد في مناطق الجبل الأخضر بقيادة عمر المختار سنة 1927. وبعد رجوعه إلى تازر (الكفرة) بأربعة سنوات شرع (غرسياني) في الهجوم على الكفرة وأسند للواء (وتكيتي) مهمّة التجهيز وإعداد الناقلات التي ستتوجه إلى الصحراء لتوفير وسائل نقل الشاحنات والإبل والوقود والذخائر وغيرها من العتاد الحربي والمواد الأخرى.

كانت قوّة الحملة تتكوّن من عدد ستّ مائة وأربع وخمسين إيطاليّا ما بين ضباط وضباط صف وجنود، ومن نحو ثلاث آلاف وثلاثمائة وواحد وعشرون عسكرياً راكبون تحملهم ثلاثمائة وثمانية وعشرون عربة وشاحنة وسريّة من السيارات المصفّحة، وفرقة تتكوّن من سبعة آلاف جمل، وثلاثة مدافع، وسبعين رشاشاً، حسب الوثائق التي أوردتها الكتب التاريخية. أمّا عتاد المجاهدين من جميع القبائل القاطنة في الكفرة فقد كان بسيطاً وبدائيّا حيث كانوا مزوّدين ببنادق وكان جلّهم من المشاة. وعندما وصلت القوات الإيطالية إلى منطقة الهوّاري بقيادة (ماليتي) يوم 18 يناير من عام 1931 لم تكن تعرف شيئاً عن الوضع في الكفرة وقد أتمت رحلتها في هدوء، حتى وصلت رسالة لاسلكية من الجنرال (غارسياني) مفادها "عليكم توخّي الحذر الشديد وإلى الإمام مهما كان الثمن".

انطلقت الرصاصات الأولى في الهوّاري واشتعلت معركة الهوّارية على الفور، حيث واجه المستعمرون مقاومة عنيفة بالرغم من الفرق الكبير في العُدّة والعتاد بين المجاهدين والمستعمرين. وكانت معارك الدفاع عن الكفرة من أشهر الملاحم التاريخية والمعارك التي سجّلت المقاومة الليبية للاحتلال الايطالي. وهي مدوّنة في أغلب الكتب التاريخية التي تعرّضت لأحداث الجنوب.

وبعد هذه المعركة الضارية، قام القائد (مليتي) بمحاصرة محلّة المجاهدين إلاّ أنّهم كانوا هؤلاء كان لديهم تكتيكاتهم الخاصة، وخاصة بعد سماعهم بقدوم القوات الثانوية التي انضمت إلى القوات في المعركة وهي ما تسمّى عند الجيش الايطالي باسم الفريق الصحراوي المكوّن من الإيطاليين والإرتريين. وقد استعانت القوات الإيطالية بسلاح الطيران فاستُشهد عدد

الكبير من المجاهدين وعلى رأسهم قائد المعركة بومطاري. وهنا تراجع المجاهدون صوب الجوف والتاج بعد أخذهم ما تحصلوا عليه من غنائم في المعركة، وحملوا أسلحة المجاهدين ومن بينها بندقية بومطاري التي أخذها ملكني بنفسه وأوصلها إلى أهله. ثم لحقت القوات الإيطالية وقامت باحتلال واحتي التاج والجوف بتاريخ 20 فبراير 1931. حينها أعلن (غرسياني) كلمته المشهورة "هذه الكفرة يا سادة!"، في إشارة إلى هذه الكُفرة المجاهدة التي ظلّت صامدة وعصيّة على الاحتلال حتى هذه الفترة. وانقسمت القوات الإيطالية إلى ثلاث محاور لمطاردة المجاهدين. وانطلق المحور الأوّل نحو الحدود المصرية، والمحور الثاني نحو تبستي، والمحور الثالث نحو المناطق الداخلية، وهنا تشتّت المجاهدون إلى عدّة جهات، وكان لمحمد ملكني الدور الأبرز في إنقاذ كثير من المطاردين والأسر النازحة في الكفرة من الأطفال والشيوخ والنساء، لكونه كان خبيراً بالصحراء. فقد قادهم إلى "تهيدا" الواقعة جنوب غرب الكفرة والتي تبعُد عنها مسافة يوم كامل على الإبل أي حوالي سبعين كيلومترا. ومكثوا هناك حيث قال محمد ملكني باللغة التبوية: "أيا بيدو تصوا أُودا اغاي تشدي" بما معناه "كلّما مكثنا هنا يوما أكثر، خسرنا واحدا لاسيّما الأطفال منهم، وكان بينهم ابنه أحمد، وذلك لنقص الماء والقوت لديهم، ولهذا قادهم إلى محافظة "قرو" الواقعة في إقليم تبيستي شمال تشاد حيث رحّب أهالي التبو القاطنين في تلك المحافظة بالمطارَدين وذلك لقوّة الترابط الإسلامي والاجتماعي بين أهالي الواحتين.

لقد قُتل الكثير من أهالي الكفرة من الذين اتجهوا غرباً بسبب استخدام القوات الإيطالية لسلاح الطيران في عمليّات المطاردة، وهكذا قضت على الكثير من أهالي الواحة والمطارَدين على الحدود، وخاصة صوب الحدود

التشادية، واستمرّ قصف المحور الثاني حتى دخول المجاهدين إلى الأراضي التشادية، وكان سقوط الكفرة وقتل أهالي واحة تازر والتنكيل بهم كبيرا الشيء الذي أثار سخط الأمّة الإسلامية كافة ونشرته عدة جرائد آنذاك ومن بينها جريدة الأهرام المصرية التي كتبت تقريراً بعنوان "شهداء العقيدة."

بطبيعة الحال، هذه حوصلة مبسّطة لتاريخ أبناء تازر (الكفرة) المجاهدة، ومن القرّاء من يعرفه بعد أن ذكر دوره بشكل مبسّط في فيلم عمر المختار، وقد كان محاولات طمس دور المجاهد محمد ملكني التبوي أمرًا متعمداً إذ لم يذكر إلا في مسلسل "الهجيج" الذي أدّاه الممثلون الوطنيون، فقاموا بقدر إمكانهم وذلك بتجسيد بعض أخباره، ولكن لم تكن أدوارهم كافية لتجسيد دوره البطولي الكبير، نظراً لوجود قيود من النظام البائد لطمس تاريخ كثير من أبناء الكفرة من التبو والسنوسيين وغيرهم من المجاهدين تطبيقاً لمقولة مكيافيلي: "اقطع الشعب عن تاريخه تسيطر عليه".

دوره كدليل للرّحالة والمستكشفين

التقى ملكني بالرحالة الإنجليزية (روزيتا فوربس) التي جاءت إلى ليبيا عام 1920. وكذلك الرحالة المصري أحمد حسنين باشا الذي قدم إلى تازر (الكفرة) عام 1923 عند مروره بواحة الجغبوب وأوجله وجالو.

ذكر حسنين في كتابه "في صحراء ليبيا" أنّه أوّل من اكتشف الواحتين المجهولتين ويعني واحة "أركنو" وهي بالتبوية اسم لنوع من الشجر، كما تعني صرخة عند البدو، وواحة العوينات -وهما واحتان تقعان جنوب شرق

واحة تازر (الكفرة). وذكر في كتابه بأنّ قافلته كانت مؤلفة من سبع وعشرين جملاً و تسع عشرة شخصاً من بينهم محمد ملكني وأخوه أرامي اللذان رافقا الرحّالة من واحة الكفرة.

كان محمّد ملكني دليلاً لا غنى عنه في هذه الرحلة، وكان معهم أيضاً السيد الزروالي الذي رافق الرحالة من واحة جالو وبوكارة وأبوحليقة وحامد، وأيضاً الشيخ هري الملقب بملك العوينات والذي انضم للقافلة في العوينات، وقال الرحالة بأنّ أهالي التبو القاطنين في العوينات كانوا مضيافين إذ كانوا يقدّمون لكلّ زائر أو مسافر عند حلّه بالواحة أكلة تقليدية اسمها "عبرة" وهي أكلة تبوية مصنوعة من الحنظل والتمر واللبن.

وقد أضطر محمد ملكني وأخوه أرامي والشيخ هري عند وصولهم إلى أردي شمال شرق تشاد إلى الرجوع لأنّهم حسب قولهم لا يجسرون على التوغل جنوباً أكثر من ذلك، وكان آخر ما قال الرحالة عن محمد ملكني في كتابه "في صحراء ليبيا" أنّه يتسم بخصلتي الاعتماد على النفس والرضا بالأقدار، وهما من شيم سكان الصحراء. كما قال بأنّ آخر ما سمعه من محمد ملكني دعاءه لباقي رفاقه في الرحلة: "أسأل الله أن يرعاكم ويهبكم القوة"، ثم رجع إلى موطنه بالكفرة عام 1925.

لقد عاش المجاهد البطل والدليل الفذ محمد ملكني حياته النشطة والمليئة بالكفاح إلى أن وافته المنيّة عام 1981 بمنزله الكائن في قارة التبو عن عمر يناهز تسع وثمانين عاما تاركاً لنا سيرة عطرة وحياة حافلة بالتضحيات والبطولات ونكران الذات.



صورة المجاهد محمّد ملكني مع أحفاده

المجاهد مينا صالح قلمة *

(1944-1860)

في ربوع بادية التبو الشاسعة وفي أسرة تبوية بدوية وُلد المجاهد الشيخ مينا صالح عام 1860 وترعرع مع أقرانه من أبناء قبيلته فورث مثلهم شمائل النخوة والرجولة وتعلّم أصول الفروسية ولباقة الحديث من أعمامه (المينا آدم وأخيه وردكو أبيقه) الذين ذكرهم الرحالة الهولنديون والألمان في رحلاتهم من طرابلس إلى فزان وبرنو. قد عُرف عنه محبته وتقديره للآخرين وذلك بشهادة القاصي والدّاني. كما جمع بين الشجاعة والحكمة. ولم يُذكر أنّه شارك في أعمال الغزو التي كانت من أعمالا شائعة بين أهل الصحراء. وبحكم يُسر الحياة التي عاشها، لم يحتج إلى مثل هذه الأعمال التي ترفّع عنها ونأى بنفسه عنها مبكّرا. وما أن أصبح الشيخ مينا صالح في سنّ تلزمه بالمسؤولية حتى حمل على عاتقه حملا ثقيلاً وهي المشيخة في عالم كان لا يعرف إلاّ لغة القوّة. وقد كانت أولى خطواته هو إنهاء الصراعات التي كانت تعج بها منطقة الصحراء ما بين القبائل. وقد كان على قناعة تامّة بضرورة أن تنتهي كلّ تلك النزاعات. وبحكم علاقته وارتباطه القوي بسلطان التبو بتيبستي: السلطان شهاي الذي كان محلّ ثقة وإجماع وإصغاء كلّ قبائل التبو، فقد قام بوضع ميثاق يجمع كلّ قبائل

* بتصرّف عن مقال لمحمد صالح إبراهيم (شبكة المعلومات الدولية).

التبو على شيخ قبيلة ممثّلا لهم في صحراء النيجر. وقد نجح في رأب الصدع ولمّ شمل الأخوة الأعداء ووضعهم تحت راية واحدة وقيادة رجل واحد. وبعدها رجع إلى فزان جنوب ليبيا حيث مسقط رأسه ومولده، وكانت النزاعات بين القبائل آنذاك في أوجها، فتمكّن من حلّ معظمها بفضل ما أوتي من حكمة حباه الله بها.

في ذلك الوقت، كانت ليبيا ترزح تحت نير نظام إقطاعي ظالم وجائر بحق السكان الضعفاء. فلم يرضى أن يعيش الناس في الذلّ والظلم، ورفضت قبائل التبو أن تقف موقف الخانع المستسلم دوما، وأصبح رجالهم يسطون على قوافل جباية الأتراك العثمانيين الظالمين ويقطعون الطريق عليهم إلى أن تمّت محاصرة الحامية التركية بالقطرون في بدايات القرن الماضي بألف رجل من تبو ليبيا وبمساندة إخوتهم من تبو النيجر وتشاد، ممّا اضطرّ الأتراك للخضوع لشروط قبائل التبو وبحضور السلطان شهاي بنفسه، وتمّت الموافقة على أن يتمّ إيجاد شيوخ لقبائل التبو يكونون هم ممثلين للسكّان لحلّ مشاكلهم وأمورهم ورفع الظلم عنهم. وبذلك تمّت الموافقة بالإجماع على أن يكون الشيخ مينا صالح هو شيخ قبائل التبو في ليبيا منذ ذلك التاريخ وقاد العمل النضالي والجهادي في القطرون وفي فزان.

ومن مآثر الشيخ الشهيد هي العمليّة التي قام بها من أجل تزويد الطوارق والتبو بالسلاح مستغلا حاجة العدو الإيطالي لمقاتلين لغرض نقل الليبيين كمرتزقة لغزو الصومال وأثيوبيا سنة 1936 فقد استخدم حنكته وحكمته وبذلك لم يتمّ نقل أي شخصٍ من مرزق وما حولها إلى الحرب في القرن الأفريقي وتمّ تسليح التبو والطوارق. وكذلك نذكر دوره في رسم

الحدود الجنوبية لليبيا مع تشاد والتي لا زالت دلائله قائمة إلى يومنا هذا، وهي الجبال التي أُطلق عليها اسمُه. ونذكر أيضاً الصداقة الحميمة التي ربطته بالمجاهد الشهيد عبد النبى بالخير، وكذلك علاقته الجيدة بالمجاهد أحمد الشريف. ولقد قاوم الاستعمار الإيطالي والفرنسي وتحدّى الفرنسيين في موقعة (يات) جنوب القطرون وكذلك شارك مع المجاهد أحمد الشريف في كتائب الجهاد في تشاد ضدّ فرنسا، وكذلك مع المجاهد عبد النبي بالخير ضدّ الطليان في ليبيا، ولبّى المجاهد الشيخ مينا صالح نداءه وقاد مجموعة من المجاهدين من القطرون، وساروا مع إخوانهم من المجاهدين في فزان نحو سواني بن آدم بالقرب من طرابلس.

بسبب صموده ضدّ قوى الاحتلال، تمّ نفيه إلى إيطاليا من قبل الاستعمار الإيطالي ظُلمًا بغرض محاكمته هناك في قضية قتل لجنود إيطاليين. وثبتت براءته ورجع إلى أرض الوطن فحاول المستعمر إغراؤه وتنصيبه حاكمًا لمُرزق وما حولها، وتخصيص راتب له بشرط إقامته داخل الحامية الإيطالية بمُرزق، ولكنّه رفض إغراءاتهم. وردّ عليهم بأنّه شيخ للتبو، فهم من اختاروه وهم من يقرّرون مصيره. ورفض أموالهم. فأقام بالقطرون مديرًا لها وسط أهله وذويه مُحاطا بقبائل التبو وأهالي القطرون، ويمارس عمله الجهادي سرّا إلى أن أتت الليلة السوداء عندما دخل المستعمر الفرنسي فزّان، واستعمرها، وأعلن استيلائه الكلّي على فزّان عام 1943، فقبض عليه المستعمر الفرنسي مع بعض شيوخ وأعيان فزان في ذلك العام وبقي في الأسر سنة كاملة. وتمّت محاكمته وهو شيخ مسنّ في الثمانينات من عمره. وحكمت عليه سلطات الاحتلال بالإعدام بالرصاص الحي. ودفن رُفاته الطاهر في قلعة سبها.

ومن بعده تسلّم الراية ابنه الحاج إبراهيم مينا صالح الذي شارك في وفد سرّي ضمّ أعيان فزّان في بيت الحاج الطاهر دريدح بمنطقة غدوة - ستيّن كيلومترا جنوب شرق سبها- وهو رجل له صيت وسمعة ومعروف بالكرم وحسن الضيافة، ويعتبر من أثرى أثرياء ليبيا في تلك الفترة، للتناقش في عملية استقلال ليبيا ودور فزان في الاستقلال، وما يدور في برقة وطرابلس من أنّ الإعلان عن استقلال ليبيا بات وشيكا، ولكن كانوا ينتظرون فزان التي كانت ترزح تحت الاستعمار الفرنسي وترفض فرنسا أن تلتحق فزان ببرقة وطرابلس. وخرج أعيان فزان وكلّهم تفاؤل بقرب استقلال ليبيا. وكان الرجل الذي يحمل هذه المعلومات ويشحذ الهمم ويوحّد الصفوف هو رئيس وزراء ليبيا الأسبق محمد عثمان الصيد. وكان برفقته الحاج إبراهيم مينا ممثل تبو ليبيا وآخرون من زعماء فزان. ونذكر أيضاً موقف الشيخ إبراهيم مينا صالح الذي لا يُنكره أحد حين بعث القذافي بعبد السلام جلود للقاء التبو وحثّهم على الالتحاق بالجيش الليبي لحرب تشاد. فردّ عليه في خطاب لاذع قائلا له نحن نرفض أن نحمل السلاح ضدّ إخواننا وجيراننا في تيبستي، وإن كنت تحمل رسالة من حاكم يريد أن يحكمنا بقوّة السلاح فذكّر سيدك بالحكّام الذين حكموا ليبيا قبله من الغزاة الأتراك والطليان والفرنسيين. وأثنى على الملك الصالح إدريس السنوسي لأنّ التبو إلى هذه اللحظة يذكرونه بكلّ خير ويلقّبونه بالملك الصالح. وكان لأخوته الآخرين دورا مماثلا على المستوى المحلّي والوطني لا يُستهان به في لمّ الشمل وفض النزاعات.

وعودا على بدء، لا بدّ من الإشارة في حديثنا عن الشيخ المجاهد مينا صالح إلى المعاهدات والمواثيق والأحلاف التي أشرف على إبرامها وتوقيعها مع

القبائل الليبية سواء الطوارق أو غيرهم والتي لا يتسع المقام لذكرها كلّها لأنّها تحتاج إلى المزيد من الوقت. ولا ينبغي أن ننسى أيضاً دوره الإنساني مع القبائل الليبية التي نزحت إلى دول الجوار مثل النيجر وتشاد حيث منحهم الحماية ومسؤوليته التامة عنهم إلى أن يصلوا إلى بر الأمان.

هذا غيض من فيض من سيرة هذا الرجل، ونأمل أن تظهر للوجود المزيد من الوثائق التي تبيّن تاريخ هؤلاء المجاهدين قصد تمكين القراء منها بعد أن عمل النظام السابق على طمسها لعقود طويلة.

السلطان شهاي بوغر*



من أبرز سلاطين فرع تِدا من التبو. وهو من قبيلة تماغرة، من أَرْدِي دُكَا (أحفاد أردي) الذين يقتصر عليهم (مع أحفاد لاي وأحفاد أَرَمِهْ) تداول السلطنة أو المشيخة. وقد تولّى شهاي السلطنة منذ كان شاباً فتيّاً في أواخر القرن التاسع عشر، إلى أن توفّي في خمسينات القرن العشرين، ويوجد قبره في بَرْدَيْ بشمال تشاد. وكان يوصف بلقب "كوندودي" أي الرجل الفخور، أو ذو الكبرياء.

يعرفه التبو باسم «شهاي بوغر»، أو «دَرْدَي شهاي» أي السلطان

* عن "كتاب التبو" تأليف د. عبدالمنعم المحجوب، أعيد نشره بمجلّة تبو الصادرة عن مركز الدراسات التبوية.

شهاي. ويرد عند بول مارتي بالاسم المعروف لدى الفرنسيين: «ماي شافامي»، ويعتبره «أشهر زعيم في تبستي»، ولكن أيضاً: «قاطع طريق» وهي صفة نمطيّة أطلقها الفرنسيّون والإيطاليّون على المقاتلين من حركة التحرّر الوطني ومقاومة الاستعمار([1])، وقد كان لشهاي أحد أكبر الأدوار في مقاومة الاستعمار الفرنسي واحتلال تشاد وفزّان، بالرغم من أنه لم يكن معروفاً لدى الفرنسيين بادئ الأمر، إذ يبدو أنهم فوجئوا بقيادته الكاريزمية ودوره في تنظيم التبو عسكرياً. يقول مارتي: «حتى عام 1900 لم تكن لنا علاقات تذكر مع زعيم تبستي لكن قواتنا ظهرت في ذلك العام حول تشاد والتقينا به كل مرة خلال الاشتباكات المسلحة»، ثم يمضي بعد ذلك قائلاً: «قد يطول الحديث عن تفاصيل صراعاتنا مع ماي شافامي حيث يتطلب ذلك سرد تاريخ تشاد بأكمله».([2]) فـ«هذا الرجل الذي جال في الصحراء طيلة خمسين سنة قد واجه تغلغلنا بكل أشكال المقاومة الممكنة، لكنه يملك من الحكمة والحرية ما يجعله يدرك أن الزمان قد تغيّر وأنه ينبغي اللجوء إلينا».([3])

تميّز عهد السلطان شهاي بالعمل على استقرار قبائل التبو وتحوّلهم إلى كيان مستقل بفضل جهوده التوحيدية وعمله الدؤوب من أجل جمع قبائل التبو ولمّ شمل التدا والدزا، وقد استطاع أن يجمعها حوله فألّف بينها ووحّدها على المصالحة والاتفاق. فكان التبو في عهده أقرب إلى الكيان المستقلّ الذي يجمع جنوب ليبيا وشمال تشاد وشرق النيجر، إلا أن زعيم التبو الجنوبيين، گتّي([4]) Getty، ساءه أن يتبع قومه زعيماً (دَرْدَي) من الشمال، فعمل على إحباط هدف شهاي بالتحالف مع الفرنسيين الذين أطلقوا عليه لقب «رجل فرنسا في تشاد».

وفي إطار سياسة شهاي التنظيمية قام بتدوين "كُتُبا"، وهو مجموع القوانين العرفيّة التي يحتكم إليها التبو (انظر الباب الثاني)، كما عمل على تكوين جيش من أبناء التبو لمقاومة الاستعمار الفرنسي، ودعم حركة الجهاد الليبي ضد الاستعمار الإيطالي.

ويذكر الأهالي من التبو أنه قام بتأسيس المنارات التعليمية (الكتاتيب) ومكافحة الأميّة بنشر اللغة العربية والمعرفة الشرعيّة وكان يطمح إلى إرسال المتفوقين من أبناء التبو إلى الأزهر بمصر والزيتونة بتونس.

وفي ظل البيئة الصحراوية البالغة القسوة عمل على تحسين وتطوير المستوى الاقتصادي للتبو بتفعيل حركة التجارة بين الأقاليم الصحراوية، وتركّز هذا النشاط في منطقة تِبستي وما حولها وقد استطاع شهاي تنظيم التجارة وتوجيه مساراتها وقوافلها وفق ما تقتضيه مصلحة التبو.

ولتركيز هذه الجهود والحيلولة دون تشتتها على نطاق الصحراء الشاسع أراد تكوين عاصمة للتبو، وقد تركّزت جهوده على النهوض بمدينة «بَرْدَيْ» بشمال تشاد واستقرارها ووَصْلها بالمستوى الحضاري الذي يؤهّلها لأن تقوم بدور العاصمة السياسيّة للتبو، فأصبحت الإقليم الأكثر تحضّراً واستقراراً.

إلا أن الصحراء آنذاك كانت مكتظةً بالصراع بين عدّة قوى خارجية، فالفرنسيون في السودان الغربي والأوسط، والأتراك في طرابلس وفزان، والسنوسيون في برقة والكفرة، وكانت مواطن التبو حول تبستي مسرحاً دائماً للصراع، أما الإيطاليون في الشمال فكانوا يدنون شيئاً فشيئاً من احتلال طرابلس.

لم ير شهاي أن السنوسيين يختلفون كثيراً عن الفرنسيين، إذ هم دخلاء أولاً، ويسعون إلى جباية الضرائب ثانياً وإن أعطوها اسماً دينياً، ولم تتجاوز علاقتهم به جمع ربع الزكاة وتأمين طرق القوافل، كما لم يتلق منهم دعماً واضحاً لمواجهة الفرنسيين، لذلك فقد اتّجه بعد أن هُزم التبو في معركة جرت في «عين قلق» أمام القوات الفرنسية إلى باشا مرزق لدعمه بالسلاح والجنود الأتراك، إلا أن الباشا تذرّع بصغر الحامية وانشغالها بتأمين القوافل، هكذا وجد أن التبو يقفون وحدهم في مواجهة الفرنسيين الذين كانوا ينفّذون سياسة الحصار والتجويع بأسلوب همجي، يقول عنه مارتي: «لأجل حمل التبو على الاستسلام وفي محاولة للقضاء عليهم بواسطة التجويع يتم كل عام منذ 1910 حرق محاصيل التمور على عين المكان. إنه أسلوب همجي نوعاً ما لكنه فرض علينا عقب الوضع الذي أصبح فيه مستحيلاً علينا ضمان الأمن الدائم».([5])

بالإضافة إلى هذا كانت مجموعات الطوارق تتوغّل شرقاً لتغير على قبائل التبو، كما أعلن كّتّي زعيم التبو الجنوبيين، تبعيته غير المشروطة للفرنسيين، ولم يجد شهاي من وسيلة أخرى لتأمين قبائل التبو سوى التفاوض.

أرسل شهاي إلى الفرنسيين ليعلن لهم عن رغبته تلك، على أن يتولوا هم إيقاف توغل الطوارق شرقاً، فطلب منه الفرنسيون أن يكتب بما يفيد رغبته تلك، فكانت رسالته التي وقّعها معه متضامناً زطّيمي (زعيم تبو تبستي الغربي، وكان آنذاك رجلاً مسناً) وهي – كما نقلها مارتي – على النحو التالي:

«كل الأعيان وكل رجال تبستي.

إن دَرْدَي شهاي يريد أن يعيش بعلاقات طيبة مع رجال استانبول.

دَرْدَي شهاي[[6]] وزطّيني كتبا هذه الورقة.

كل رجال تبستي يقولون: إنهم يريدون الاستماع إلى كلام دَرْدَي شهاي.

لقد اجتمع الجميع وتحدثوا ويريدون الآن طاعة دَرْدَي شهاي.

إن سلطان استانبول يقول: إنه لا يريد رجالاً قراصنة، كذلك يقول دَرْدَي شهاي: إنه لا يريد رجالاً قراصنة. كل التبو يقولون: بعد الآن لن نسرق أبداً ولن نقوم بالحرب وسنطيع قائدنا، بعد الآن سيهدأ كل التبو. إنهم يريدون تبادل الأسرى مع الطوارق، وينبغي للنقيب [الفرنسي] أن يقول للطوارق: التبو لن يحاربوكم فلا تحاربوهم. عندما يهاجم الغزاة الطريق لا تستطيع القوافل السير فيها، لذلك هم يريدون أن تبقى الطريق سالمة.

لقد أصبح التبو الآن يطيعون دَرْدَي شهاي وزطّيني وينبغي على النقيب أن يبلّغ الطوارق بذلك.

إن دَرْدَي شهاي وزطّيني وكل أعيان تبستي يطالبون بالسلام مع النقيب ومع الطوارق، ويريدون تبادل الاتصالات والمبعوثين بين النقيب ودَرْدَي شهاي ليحلّ السلام بينهما، وكذلك بين دَرْدَي شهاي والطوارق، وليكن بإمكان الطوارق الورود على تبستي ومرزق للاتجار، وإذ يأتون للاتجار لا ينبغي لهم أن يسرقوا منا كانوا يفعلون سابقاً.

وعندما يأتي رجال دَرْدَي شهاي إلى كوار سيكونون حاملين لتراخيص منه، لذلك فإن رجال التبو الذين لا يحملون مثل هذه الأوراق ليسوا من رجال دَرْدَي شهاي وقد يُقتَلون. أما الرجال الذين يقودهم دَرْدَي شهاي فيأتون حاملين الترخيص دائماً، ولا يبقون أكثر من ثلاثة أيام، وعندما

يكتب النقيب رسالته ينبغي أن يسلمها لرجلين يحملانها إلى دَرْدَي شهاي، وعليه كذلك أن يبعث برسالة [مماثلة] إلى الطوارق.

دَرْدَي شهاي يحيّ النقيب [الفرنسي].

كُتبت هذه الرسالة يوم الثلاثاء من الشهر القمري الموافق العاشر من شهر عيد الأضحى.

كتبها المرابو (المرابط) خليل بن مَمَدو كُواكْوا».([7])

بعد هذه «الاتفاقية» اضطر شهاي إلى القيام بتعهّدات مرافقة، وهي:

- وقف تحالفه مع أهالي الكفرة والسنوسيين.

- تسليم الأسرى الذين في حوزة التبو.

- إعادة قطعان الماشية التي تم السطو عليها.

- تقديم مائتي قطعة سلاح.([8])

كانت الحرب الأوروبية (1914–1918) تستعر آنذاك، وتقهقر الإيطاليون إلى الساحل الليبي، وازداد ضغط المجاهدين الليبيين، الأمر الذي زاد من هشاشة وضع الفرنسيين في الصحراء وقدرتهم على الاحتفاظ بمستعمراتهم، وقد ترك زطيمي جبال تبستي ليلتحق بقواته بشهاي في الشرق، وجرت معركة بردَيْ في 23 يونيو 1914 التي انتهت بسيطرة الفرنسيين عليها بعد أن تكبّدت قواتهم خسائر جمّة. ولجأ شهاي وعدد كبير من قواته إلى أوزو وزوماري، ولاحقتهم القوات الفرنسية فتحصنوا بمواقع منيعة في أوزو، وانتقل بعضهم إلى أبو. وبسبب كبر سنّه تم أسر زطيمي وأجبر على إعلان رضوخه لفرنسا.

ودعا الفرنسيون شهاي إلى الالتزام بالاتفاقية السابقة فأرسل مبعوثيه إلى بِلما يوم 15 مارس 1915 برفقة عدد ستّة أسرى، وأربعة جمال، مع رسالة شفوية تقول أنه لا يستطيع ضمان تسليم التبو لأسلحتهم، إلا أن الفرنسيين اعتبروا ذلك إعلاناً منه عن التنصّل من تعهّداته، وأصبحوا يشيرون إليه في مراسلاتهم الرسمية باسم «زعيم المنشقّين»، أما هو فقد استغلّ هذه الهدنة المؤقتة ليعيد تجميع قواته في الشمال، ثم تمكّن في 27 يوليو 1916 من تحرير تبستي ولاحق القوات الفرنسية إلى تخوم بلما، وهو التحرير الذي سجّلته الوثائق الرسمية الفرنسية باعتباره «إخلاءً سريعاً لتجنّب الفشل والإذلال».([9])

كان الفرنسيون يسعون لاستكمال سيطرتهم على مواطن الطوارق في الغرب واستمالتهم لإلقاء السلاح، بالإضافة إلى دعمهم لزعماء مجموعات صغيرة من التبو في بلما وكوار، وذلك لإحكام السيطرة على الصحراء بأسرها، وأمام إدراك شهاي لنوايا الفرنسيين قرّر أن يبادر إلى خطوة من شأنها تهدئة الأوضاع وتجنيب قبائل التبو عبء حرب طاحنة، فرحل في 19 أكتوبر 1920 مع عدد من أعيان التبو الشماليين إلى بلما ليلتقي بالعقيد رويف مفوّض الحكومة الفرنسية، وليعلن أمامه القبول بعدم مهاجمة الفرنسيين أو حلفائهم بغتةً، مع التعهّد بالإيفاء بالتزاماته الأخرى، إلا أنه اشترط للقيام بذلك احتفاظه بالسلاح، ودعمه لإزاحة خصمه گتّي (رجل فرنسا في تشاد)، والتخلص من متمرّدي التبو الذين كانوا يتحصنون بمناطق وعرة من جبال تيبستي، وقد استجاب الفرنسيون لبعض شروطه، إلا أنهم رفضوا التخلّص من الموالين لهم.

استمرت مقاومة شهاي دون انتظام واستطاعت قواته تأمين وجود

قبائل التبو باللجوء إلى مواقع صحراوية منيعة في الشمال الشرقي، وكان في أحيان كثيرة مضطراً للقتال على جبهتين اثنتين الأولى باتجاه الجنوب ضد الفرنسيين في بردّي، والثانية باتجاه الشمال ضد الإيطاليين في الكفرة.

لم ينل شهاي ثقة الفرنسيين في أيٍّ من مراحل حياته، ولا ثقة الإيطاليين بالطبع، وعاش شبه مطارد من الطرفين، ولكنه لم يستكن أبداً للتفاوض أو الرضوخ.

هوامش

[1] – انتشرت هذه الصفة باللهجتين الليبية والتونسية باسم «الفلاقة».

[2] – مارتي: 54.

[3] – ن.م.

[4] – يُكتب اسمه في المصادر العربية: غيطي.

[5] – مارتي: 47

[6] – في الأصل: ماي شافامي، وقد أثبتنا هنا الاسم الذي عرفته به قبائل التبو.

[7]– مارتي: 55. لم أعثر على تأريخ هذه الرسالة، ويقول أبناء التبو أنها كانت سنة 1911.

[8]– مارتي: 56.

[9] – مارتي: 64.

حركة عثمان كلوي

(1976-1880)



ولد عثمان خلال سنة 1880 بجادو، وجده هو وردمي الذي قدم مع عائلته ليستقر في البداية بأشدومة (شمال دركو) ثم انتقل بصفة نهائية إلى جادو، وهو من عشيرة أوزبا، وهو اسم محلّته الأصلية. كان والده يمتلك كثيرا من النخيل بكوار ومستودعات كبيرة، كانت تُعرف باسم "مستودعات كلوي" ومتواجدة في شرق تيمي ترسو وهي التي كانت مصدر الخلاف بين عثمان وابن عمه موسى أراي قبل هجرته إلى ليبيا. أمّا أمّه المدعوّة بولى فهي من قبيلة أدبوبا، غير أنّ كلّ هذه العائلة كانت تُعرف في جادو بقبيلة ترميا التي كان كلوي رئيسها وشيخها. ونذكر من أولاد عثمان كلوي واردغو

وكوسلي الذين اشتهرا بمواصلة المقاومة إلى سنة 1956 وكان عثمان كلوي قصير القامة، فاتح البشرة، وبدينا، حسب البطاقة الوصفية للمتحدثة عن شخصيته وحري بنا أن نترك الكلمة: للمسؤولين الإداريين في بيلما آنذاك إذ أنهم كانوا يصفونه في تقاريرهم وبرقياتهم:

1- "مستخرج من رسالة رقم 394 بتاريخ 1919/11/13) الصادرة عن النقيب ديفور إلى دائرة أغاديس يقول فيها:

-رغم كل الجهود التي تبذل لإعادة السلم بجادو التي يسميها التوارق بقيواس اشترك الزعماء الأساسيين لهذه الواحة وعلى رأسهم عثمان وكولوي مع رزو- انتهى.

-عاد عثمان إلى جادو ولكن كولوي ما زال مع مختار كودوغو. انتهى.

-ينبغي معاقبة مجموعة جادو. انتهى.

لا نستطيع التحرك جيدا لأنّنا نفتقر لأتباع أكفاء بكوار. انتهى.

هل تستطيعون القيام بهذه العملية؟".

2/ مستخرج من رسالة رقم 395 بتاريخ 1919/11/12 أصدرها النقيب ديفور إلى رئيس الإقليم يقول فيها:

"الدوافع التي أجبرتني على طلب دائرة أغاديس لتقوم بردع وقمع حركة المقاومة بجادو هي كالأتي:

- قائدين من فرقة عثمان وكولوي ومعظم أو جلّ سكّان جادو وقد التحقوا بمختار كودوغو. انتهى.

- عاد عثمان مع بعض الرجال إلى جادو وأعلموا كوار بأنّ كل العلاقات

مع المسيحيين قد انتهت، ودعوا سكان جادو المقيمين بكوار إلى العودة إلى جادو. انتهى.

- ساهم المدعو مع تبو جادو بالمال والتموين والأمتعة والأسلحة المختلفة التي تركها تيقاما في طريق تجرهي".

3- برقية مرقمة 2488 بتاريخ 1932/9/6 الصدارة من حاكم الدائرة يقول فيها:

- اتخذوا كافة التدابير اللازمة لمراقبة عثمان وأنصاره.

- اضمنوا حماية حدودكم. انتهى.

- أرسلوا برقية تحتوي على معلومات بخصوص أي تراجع أو انسحاب قد تقررونه. انتهى.

4- مستخرج من تقرير بتاريخ 1946/8/18 للنقيب ميرات يقول فيه:

- ما زال المتمردون بالمرتفعات متمسكين بمبادئهم وعلى رأسهم عثمان كلوي فهو العقل المدبر لحركة التبو التي دفعت آمر المقاطعة إلى حرق النخيل –نخيل سيقى ديم- شمال مقاطعة سنة 1920 وهو يمتلك الكثير من النخيل، قام عثمان بتقفي أثر أنصارنا واستطاع بمساعدة التبو أن يقضي على 12 من بين 13 من أنصارنا وذلك بمنطقة ونيسيا (70 كلم غرب أوداي.

ومنذ ذلك التاريخ بات عثمان يسيطر على المنطقة بشكل كامل. وجرت محاولة صلح خلال عام 1932 غير أنّ عثمان قرّر الاستقرار بتارمي لكن عدوان قزبيدا (؟) كلّفه حادثة أخرى فرجع إلى جادو وهو يعيش كلاجئ في

المرتفعات ويتمتع بنفوذ مطلق لدى التبو.

عند نطق اسم عثمان بمعسكر التبو كانت الابتسامة ترتسم عريضة على شفاه المستمعين وهذا يؤكد احتمال وجود خارجين عن القانون آخرين بالمرتفعات تحت رعايته وحمايته....." ومن هذا يتبين في الوقت الحالي وفي كافة أرجاء هذه المنطقة الشاسعة شمال سيقى ديم أنّنا لسنا متواجدين بكثرة ولا نستطيع ممارسة سلطاتنا إلاّ على أولئك الضعفاء الذين يرون في الاستسلام الوسيلة المناسبة".

5- مستخرج من برقية رسمية رقم 21 بتاريخ 1951/7/20 صادرة عن الملازم بووجون:

"إنّ أكبر وأشهر قائد للمتمردين هو المدعو عثمان كلوي وهو خارج عن القانون منذ ثلاثين عاما، فكل سكان جادو يهابونه كما أنّه محبوب لدى كل قطاع الطرق الذين يرون فيه رجل ثقة وأمان. وهو يترحل وفقا للأصول فتارة بمنطقة القطرون بفزان حيث يمتلك الإبل، وتارة بجادو حيث يمتلك الكثير من النخيل، كما يبدو أنّه يتنقل بحرية تامة بالقطرون مما جعله معروفا لدى حاكم البلد هناك (مينا صالح ابة تبو) وولديه كوسلي وواردغو شأنهم شأن أبيهم، فوواردغو هو المجرم الذي أصاب الدكتور الإفريقي سيكو أيدو بجروح (وكذلك المترجم صالح بن حمودة) وقتل حارس المهاري أباري تدا خلال معركة أونيس بابا.

وفي 1920/4/9 قام المستعمرون بتجهيز مجموعة من ثلاثين عنصرا من الأتباع قاموا بحرق نخيل سيق ديم وقتل واعتقال العديد من عائلات المنفصلين أبرزها عائلة عثمان وابن عمّه كولوي آدم، حيث تم اعتقالهم

وتحويلهم إلى أغاديس لإجبارهم على الرضوخ والاستسلام. ولكن عثمان رد على هذه العملية رفقة رجاله بالمثل خاصة في حادثة ونيسيا المرعبة والتي وقعت في 1920/5/11 حيث قضى على فرقة كاملة من أنصار المستعمرين ما عدا شخصا واحدا تركه ليوصل الخبر إلى الأعداء.

وبعد ذلك، وخلال سنة 1971 قام الرائد روطني وهو آمر المقاطعة بحرق واحة نخيل جادو، زاعما بذلك أنّه قضى على الحملة العصبية للمقاومة، وكان هذا إجراءا انتقاميا من التسهيلات التي كان يقدمها السلطان تيقام ومختار دودغو (شقيق كازسن) بعد تقهقرهم خلال 1919 وأدت هذه العملية إلى إخلاء شامل لجادو.

وفي سنة 1932 بُذلت كل المساعي والجهود الرامية إلى عقد صلح مع عثمان مقترحين عليه الإفراج على أفراد عائلته المحتجزين بأغاديس، وتوليته منصب رئاسة بلدة جادو (التي يعتبر في الواقع الوريث الشرعي لها) لكنّه رفض هذا العرض وقرّر أن يستقر مؤقتا بتارميت. وانتظارا لكشف نوايا المستعمرين الحقيقية. لكنه عاد إلى القتال والجهاد من جديد بعد أن قامت إدارة المستعمرين بإنشاء قاعدة ثابتة لها بمنطقة شيرفا، وغادروها من جراء تهديدات عثمان المتواصلة وكان ذلك سنة 1943 لكنّهم سرعان ما عادوا إليها في سنة 1951. ولم تضعف حركة المقاومة بل أخذت تتسع إلى أن وصلت إلى حد تكوين جيش منظم سنة 1956 وتوزع هذا الجيش على مجموعات:

أ/ مجموعة جادو: بقيادة عثمان نفسه إلى غاية 1950 عندما ولّى ابنه واردغو القيادة، وتكوّنت هذه المجموعة من عدد معتبر من المجاهدين.

ب/ مجموعة تيبستي: وقام بتنشيطها كهدي (شقيق سلطان واداي ككهدي) وأصله من سيقى ديم وهي المحلّة التي عُيّن بها شقيقه رئيسا أعلى وسلطانا لتيبستي.

ج/ مجموعة تقارميت: وكان يرأسها سيدي آدم، وتألفت من العديد من المقاومين المعروفين بنشاطهم الفعال في مساندة أشقائهم في المهمّة النبيلة المتمثلة في محاربة الأعداء.

د/ مجموعة أقاديم –مانغا: وكان يرأسها أنور موسى (شقيق در كيوى موسى) الذي قُتل بمعركة عين غلاكا خلال شهر أغسطس من سنة 1957، وضمن هذه المجموعة رجال محنكين كالافي حبيب، وبارباي يادرن وسيدي بالي، و قلماي أبا صالح، إلخ....

توحي كل هذه الأسماء بالشجاعة والمجازفة وحب القتال تصديا لإدارة المستعمرين. وساهمت كل هذه المجموعات في استمرارية ودوام حركة المقاومة التي لم تتمكن السلطات الفرنسية من التحكم فيها عمليّا إلاّ بعد نصف قرن من المعارك التي كبدتها خسائر فادحة.

بعد سنة 1950 وتحت تأثير السنّ (70 سنة) قرر عثمان تسليم قيادة هذه المقاومة لابنه واردغو الذي أثبت أنّه خير خلف لخير سلف. وهكذا أُوقف عثمان بتاريخ 1952/9/30 بفزان (ليبيا) من قبل السلطات الإنجليزية بعد طلب صلح للمقيمين الفرنسيين هناك. وحُوّل فيما بعد إلى أغاديس للمثول أمام المحاكم غير أنّه أُطلق سراحه ولم يؤدّي هذا الإجراء البق إلى الصلح الذي كان يهدف له المستعمرون.

ثم عاد عثمان بعد ذلك إلى زلّة (ليبيا) راسخ العزيمة إذ أنّه لم يتراجع

عن قسمه المتمثل بأن لن يرضخ للسلطة الفرنسية أبدا، وهو يمين عمل ابنه واردغو على الوفاء به إلى سنة 1956.

أما بالنسبة لعثمان فسيظل الأب الروحي لهذه المقاومة طوال حياته وحتى حصول البلاد على استقلالها. وقد عاش بعد ذلك حياة هادئة بعد جهاد طويل قدّم خلاله تضحيات جسام.

بإرادته الحرة فضل عثمان الهجرة بعد الاستقلال، حيث وافته المنيّة سنة 1976 وهو شيخ جليل بمنطقة مجدول (مرزق- ليبيا) عن عمر يناهز 106 عاما تاركا أرملتين وذرية عديدة.

يحظى عثمان كلوي بكوار بنفس المكانة والسمعة الحسنة التي يحظى بها عمر المختار في ليبيا (أسد الصحراء)، غير أنّه ظلّ مغمورا، و من المؤسف أن تُدفن شهرته وبطولته في غفلة تاريخية لبلاده. ونعتقد أنّ الوقت قد حان لإحقاق الحقّ وإبداء الاحترام والتقدير له وأمثاله تخليدا لذكرى هؤلاء الأبطال.

خاتمة

هكذا، وبهذه المقتطفات المترجمة والمقتبسة التي أردناها أن تكون نافذة صغيرة على جزء يسير من مظاهر ثقافة التبو، نأمل أن يكون القارئ قد حصل على فكرة عن أصالة التبو وعراقتهم واطّلع على ما يميّزهم عن غيرهم من القبائل التي جابت الصحراء الليبية معهم. كما نأمل أن يكون القارئ قد وقف على أهميّة التبو كمكّون ثقافي وحضاري له خصوصياته الاجتماعية ونمطه الاقتصادي الذي مكّنه من التغلّب على مجاهل الصحراء والتأقلم مع نقص موارد العيش فيها، وكيف كان للتبو دور أساسيّ في الكفاح ضدّ مختلف قوات الاستعمار والاحتلال، وهو ما يجعلهم ركيزة أساسيّة ومخفرا أماميّا وقوّة طلائعية في الذود عن الوطن وسلامة أراضيه وخاصة إذا ما توفّرت لهم فرص التنمية وسبل الاستقرار في تلك القفار النائية.

وبهذه المقتطفات أردنا أن نبيّن كيف أنّ الصحراء ليست بل ولم تكن أبدا عاقما بل أمّا ولودا تزخر بالموارد والخيرات خاصة إذا عرف الإنسان كيف يخطط لاستغلالها دون إفساد، ولاستثمارها وتنميتها بشكل جمعيّ ومشترك دون أنانيّة وانفراد.

هؤلاء هموا التبو! وتلك هي مناطقهم التي شدّت اهتمام الرحالة والمستكشفين والمستعمرين... أليس حريّ بنا أن نهتمّ بها بحثا ودراسة وتحليلا؟

ليت هذا الكتاب - بما فيه من مقالات ودراسات مترجمة ومقتبسة - يكون لبنةً وحافزا للباحثين بمختلف مشاربهم لكي يهتموّا بمواضيع التبو وغيرهم من المكونات الثقافية في الصحراء من أجل إبراز الصورة الحقيقية لتلك الأقوام البسيطة في تكوينها وعيشها والعظيمة في شأنها وخصالها، وتوضيح إسهاماتها في بناء وطن متنوّع وتعدّدي يسع الجميع.

قائمة المحتويات



هذا الكتاب عن التبو وجغرافيتهم وثقافتهم وعاداتهم وتنظيمهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كمكوّن ثقافي يشكّل فسيفساء الجنوب الليبي والصحراء الكبرى. وهو محاولة للإجابة عن الكثير من الأسئلة في شكل مبادرة مشتركة بين المترجم ومركز الدراسات التبوية لفتح نافذة على الأعمال التي تناولت التبو، ولخلق نواة لمكتبة تبوية نحن في أمسّ الحاجة إليها، تكون منارة توجّه شعب التبو وتعرّف بجغرافيته وثقافته وجوانب مختلفة من حياته.

وقد جاء هذا الكتاب في شكلٍ مجموعة من المقالات المترجمة والمقتبسة بتصرّف عن بعض الدراسات والكتب الأجنبية التي تناولت جوانب من تاريخ التبو والتي حاولنا تبويبها رغم ما بينها من تداخل وترابط من حيث تغطيتها للجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

كما ارتأينا تقسيم هذا الكتاب إلى أربعة أبواب هي: جغرافيا التبو وبيئتهم (الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية)، مظاهر من ثقافة تبو الصحراء وتاريخهم، شخصيات تاريخية.

